أوراق داعية
آفاق شرعية ثقافية
لكل مسلم
تأليف
عاطف بن عبد العز الفيومي
مكتبة طريق الصالحين

أوراق داعية

آفاق شرعية ثقافية لكل مسلم

تأليف

عاطف بن عبد المعز الفيومي

الناشر

مكتبة طريق المصلحين

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

1433هـ - 2012م

تنبيه

لا يجوز تصوير أو تنضيد أو طباعة الكتاب إلا بموافقة من المؤلف أو من المكتبة الناشرة صيانة لحقوق الجميع ومراعاة لعامل الحق الشرعي.

بريد المؤلف

at_2000m@yahoo.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فهذه كلمات وبحوث ودراسات، متفرقة في شتى ربوع الثقافة الإسلامية للمسلم، وما يتعلق بها، في القرآن والحديث والفقه، وقضايا الدعوة والواقع المعاصر، وفق الله تعالى بنشرها في أوقات متفرقة في الدروس والمساجد بحسب الحال، كما نشرت في الشبكة العنكبوتية، وعدد من المواقع الإسلامية وغيرها.

وقد عزمت بعون من الله تعالى وتوفيقه بجمعها في سفر واحد، وضمها إلى بعضها، والاستفادة وتحصيل الأجر منها، وذلك أنني كنت راجيًا من الله تعالى، أن أوفق لإفراد بعضها بمصنف خاص، إلا أن العمر قصير، والكلام كثير، ولا يدري العبد الفقير في أي الدارين يكون بعد حين، فقمت بعد توفيق الله تعالى بجمعها هنا، خوفًا من الضياع والنسيان، وفوات الأجر والثواب المرجو من ورائها عند الله تعالى.

وقد رجوت من الله أن أوفق في ذلك لأنها بحوث ومقالات متنوعة، وأحسبها مهمة لثقافة المسلم المعاصر، وتقريب بعض المسائل الشرعية، والقضايا الدعوية والواقعية إليه، ثم بكونها مركزة في جل موضوعاتها من حيث البيان والاختصار قدر الإمكان.

مراعيًا بذلك موافقة الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح من صدر الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان - رضي الله عنهم – جميعًا، وقد سميتها **"أوراق داعية"** راجيًا من الله تعالى التوفيق فيها.

فإن أخطأت فنسأل الله الستر والغفران، وأنا منه براء، وإن أصبت فمـن الله وحـده، وقد أعددتها لهذا الغرض، راجيًا من الله تعالى أن ينفعنا بها، وأن ينفع بها المسلمين أجمعين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

خادم القرآن والدعوة

أبو شهاب الدين

عاطف بن محمد بن عبد المعز السلمي الفيومي

في 20 رجب 1433 للهجرة النبوية.

فيصل – الجيزة

الفصل الأول

قضايا أمتنا

إلى أدعياء الثقافة والتنوير: مهلاً

في تعليق واجب وضروري على خبر مؤلم لكل غيور على شريعة الله المنزلة، وعلى دينه العظيم، نشرت مفكرة الإسلام خبراً الاثنين21 من رجب1430هـ 13-7-2009م، يدلنا على التدني الكبير فيمن تسموا بالطبقة المثقفة، أو المتنورة، أو النخبة، أو التوعوية، إلى غير ذلك من ألقاب تضخيمية، تنفخ في هؤلاء، وترفعهم فوق الرؤوس، وتفتح لهم الأبواب، وتنبئ عن خطر وخندق حقيقي كبير يحارب الإسلام وأهله.

جاء في الخبر: (مفكرة الإسلام: شهدت ندوة بمكتبة الإسكندرية ـ دعي إليها مجموعة من الأدباء المسيئين للذات الإلهية والإسلام في أعمالهم ـ هجومًا عنيفًا ضد الدين والمؤسسات الدينية والدستور المصري.

وحضر الندوة التي كانت تحت عنوان "آليات الرقابة وحرية التعبير في العالم العربي" _حيدر حيدر_ صاحب رواية وليمة لأعشاب البحر والشاعر حلمي سالم صاحب القصيدة المتطاولة على الذات الإلهية.

وبدأ الإساءات_ الدكتور إسماعيل سراج الدين _مدير مكتبة الإسكندرية بالدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، في مصادمة صريحة لدستور البلاد رغم أنه مسؤول رسمي يفترض أنه يعمل وفق الدستور ويحترمه.

كما زعم أن الإسلام يفصل الدين عن الدنيا وقال: "آن لنا أن نواجه بشكل حاسم ونهائي مشكلة إقحام الدين فيما لا علاقة له به وتحكم رجال الدين في مختلف شئون الحياة ـ وفق زعمه ـ وانفجار عصر الفتاوى العشوائية، وسيادة من أسماهم الدعاة المحترفين والمتطوعين".

كما دعا مدير مكتبة الإسكندرية إلى حماية المفكرين والكتاب الذين "يشككون" في الدين أو العقيدة بوصف ذلك يمثل روح الحضارة الإسلامية ـ حسب قوله ـ مرددًا كلمات منسوبة إلى ابن الهيثم في القرن الثالث عشر، مضيفًا أنه يحترم تراثه ولكنه لا يقدسه ويدعو إلى تجاوزه).

إلى غير ذلك من المطالبة بإلغاء المادة الثانية من الدستور، التي تنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع في مصر.

والمتأمل فيها أي في تاريخ التسميم الفكري، والغزو الثقافي التغريبي، لا يستبعد صدور هذا التدني الرخيص في عقول وأفكار هؤلاء.. وتاريخهم مملوء بالعفن الفكري، والتدني العلمي، والتسميم الثقافي.. كما قال عز وجل وهو أعلم بمن خلق:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ{8} يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ{9} فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ{10} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{11} أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ{12}"سورة البقرة.

وهنا وقفات سريعة:

1- وضوح منهج الإسلام وكماله:

وقفة سريعة من قلب غيور على حرمات الله أن تنتهك، وأن يتطاول عليها كل قزم دنيء، حرمات الله وحدوده هي شريعته الغراء، فعل الأمر وترك النهي والوقوف عند الحد والسكوت عما سكت عنه الله ورسوله.

وهذه الشريعة شريعة الله تعالى، ليست من جهود البشر القاصرة، ولا إمكاناتهم المحدودة الضعيفة، كلا..إنما الإسلام وشريعته شرع منزل من عند الله تعالى:"إن الدين

عند الله الإسلام.الآية"، "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" بل وجعل الله تعالى هذا الدين وشريعته حكماً ليس في شؤون الدين والتعبد فحسب، بل جعله حكماً في جميع مجالات الحياة البشرية، في شتى صورها ، وتنوع مجالاتها..

وهذا الدين العقيدة فيه واضحة لكل أحد ، فلا تقديس ولا عبودية لأحد سوى الله تعالى، ولا شركاء في حكمه وشرعه ، الذي هو أمره ونهيه، فهو الواحد المعبود صاحب الخلق والأمر قال تعالى:" أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ "(الأعراف:54)، وقال سبحانه:" أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(الشورى:21).

والعبادة فيه واضحة ، فلا ذبح ولا نذر، ولا قربان ولا تعبد ، ولا شيئاً من ذلك إلا لمستحقه سبحانه:" قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ"(الأنعام:162-163).

والتزكية فيه والأخلاق واضحة ، فلا تستقيم النفس إلا بهداه ، ولا تسعد إلا بسلوك الطريق إليه الذي أراده لها كما قال تعالى:"إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى "(طه:123)، وقال تعالى:" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"(الشمس:7-10).

وقد جمع الله لنا في كتابه كثيراً من الأخلاق الفاضلة ،فمنها في وصف عباد الرحمن وبيان صفاتهم وأخلاقهم قوله سبحانه: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ

وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ، وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا" [الفرقان: 63،76].

والتشريع والحكم فيه واضح، فليس لأحد مع الله قول ، ولا تشريع ولا حكم ، ولا تحليل ولا تحريم كما قال تعالى:"أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"(المائدة:48).

وأمر سبحانه بحكمه وحده دون متابعة الشركاء والأهواء، وحذر من مخالفة ذلك بقوله تعالى:"وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ"(المائدة:49).

كما أنه لا يبدأ فيه في البناء والتغيير من القمة ، وإنما يبدأ فيه من القاعدة المسلمة ، من خلال تغيير الأنفس أولاً قبل تغيير الحكومات والأنظمة البشرية كما قال تعالى: "إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ" (الرعد11).

كما أنه ثابت في عقيدته ومنهجه في جميع مراحله وتوجهاته ، لأن العقيدة التي فيه لا ينتقل منها إلا غيرها ، إنما ينتقل معها إلى غيرها ، لأن العبادة والسلوك والمعاملات لا تقوم إلا على عقيدة تؤسسها أولاً ، ثم تستمد المنهج والتشريعات منها ، وإن تركها والإعراض عنها في أي مرحلة ، يشكل نوعاً من الغبش واللبس والغموض، ونوع من الكفر والفسوق والظلم ، فالحكم بما أنزل الله عقيدة وتشريع فمن ترك أحدهما دخل في نوع من المخاطرة على عقيدته كما قال تعالى:" وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ "(المائدة:49) ، وكما قال تعالى:" وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ "(المائدة:44) وقوله:" وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } المائدة:45) وقوله:" وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "(المائدة:47).

وغاية كل هذا الوضوح والجلاء، تعبيد الناس لله وحده ، وإقامة جميع مظاهر العبودية له دون ما سواه من الشركاء والآلهة والأنداد كما قال تعالى:" قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات: 56].

فأخبر سبحانه أن الحكمة من خلق الجن والإنس: هي قيامهم بعبادة الله، والله غنيٌ عن عبادتهم، وإنما هم المحتاجون إليها لفقرهم إلى الله تعالى، فيعبدونه على وفق شريعته، فمن أبي أن يعبد الله فهو مستكبر، ومن عبده وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن عبده وحده بغير ما شرع فهو مبتدع، ومن عبده وحده بما شرع فهو المؤمن الموحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة: هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »أ هـ.

وهذه والعبادة توقيفية: بمعنى أنه لا يشرع منها إلا بدليل من الكتاب والسنة، وما لم يشرع يعد بدعة مردودة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي مردود عليه عمله، لا يقبل منه بل يأثم عليه، لأنه معصية وليس طاعة، ثم إن المنهج السليم في أداء العبادات المشروعة هو الاعتدال بين التساهل والتكاسل، وبين التشدد والغلو، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [هود: 112]، فهذه الآية الكريمة فيها رسم لخطة المنهج السليم في فعل العبادات.

ومبنى العبادة في الشريعة الإسلامية يقوم على قاعدتين هامتين:

الأولى: ألا يعبد إلا الله وحده.

الثانية: ألا يعبد إلا بما شرع على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم –.

فالعبودية لله تعالى هي غاية الوجود الإنساني في الحياة الدنيا، وقد تعرض القرآن الكريم لها وبين ما اشتملت عليه من المقامات العالية، وأشار القرآن إليها في كثير من آياته، ودعا إليها، وحث عليها، ومدح أهلها القائمين بها وبحقوقها، وأثنى بها على أنبيائه ورسله عليهم السلام، ووعدهم بالأمن يوم القيامة من الفزع والأهوال، وبالفوز بجنات النعيم في دار الخلود الأبدى، ومن ثم أمر بها عباده الصالحين، بدءًا من الأنبياء والمرسلين، وشرعها لهم ولأتباعهم من بعدهم، وأمرهم بالإخلاص فيها، وجعل دعوتهم جميعًا إليها:

وهذه النصوص القرآنية توضح كل ما أشرنا إليها إيضاحًا تامًا شافيًا:

كما قال الله سبحانه: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" [الذريات: 56]، وقال سبحانه: "وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" [النساء: 36].

وبهذه العبادة أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: "اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" الأعراف: 59].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام لقومهم.

وقال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ" [الأنبياء: 24]، وقال عز وجل: " إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" [الأنبياء: 92].

وقال أيضًا لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: " وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" [الحجر: 99] واليقين هنا هو: الموت.

كما وصف سبحانه ملائكته وأنبياءه بالعبودية فقال تعالى: " وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ" [الأنبياء: 19، 20].

وقال عز وجل: " إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ" [الأعراف: 206].

وقال سبحانه وتعالى: " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" [غافر: 60].

إن تقرير حقيقة العبودية في حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم كما يصحح حياتهم وأوضاعهم فلا يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ولا أن تستقر الحياة والأوضاع على أساس سليم قويم إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار وما يتبع الإقرار من آثار عندما تستقر هذه الحقيقة بجوانبها في نفوس الناس وفي حياتهم يلتزمون بمنهجه وشريعته ويستشعرون العزة أمام المتجبرين والطغاة حين يخرون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولا يذكرون أحدًا إلا الله تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس.

إن استقرار هذه الحقيقة الكبيرة في نفوس المسلمين وتعليق أنظارهم بالله وحده وتعليق قلوبهم برضاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه.. في هذه الحياة.. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات في الآخرة فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله( ).

2- عداء لمنهج الله وشريعته:

وهنا نقول إن هذه المدرسة التغريبية، تحاول الوقوف بعداء صراح لهذا المنهج الإسلامي الرباني الواضح، وتسمي تشريعات الإسلام وحدوده- إقحام للدين في كل شؤون الحياة- وهنا نقول هل هذا حقاً إقحام للدين ، أم أنه منهج من الله لكل البشرية ، حتى لا تتخبط في ظلمات التيه والضلال..؟ " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون".

نعم إنه منهج الله الذي يعلم من خلق، لكنهم اتبعوا أهوائهم، وصاروا خلف الشيطان يصيحون في كل واد كما صاح الشيطان من قبل" قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك..الآيات".

إن هذه المدرسة التغريبية: التي تفرعت ما بين اتجاهات علمانية وماركسية شيوعية ، وهؤلاء خلطوا كثيراً وتخبطوا كمن سبقوا في فهمهم لحقيقة الإسلام أو قل تعمدوا ذلك .

لقد بنوا طريقة تعاملهم مع الإسلام ومنهجه على ما نشأ عند الغرب في القرون الوسطى المظلمة ، حيث رجال الكنيسة والمعبد ، الذي لا يحسنون قيادة الحياة ومواكبة الركب الحضاري ، لأنهم كانوا منشغلين بكنائسهم ومعابدهم وطقوسهم ، ومن هنا نشأت دائرة الانفصام بين الدين والدنيا عندهم، واعتقدوا بذلك أن سبب كل تخلف عن ركب المدنية والحضارة، إنما منشأه من التدين والدين ، فصارت العلمانية والتمرد على القيم والانفتاح المنفلت هي شعارات التقدم والرقي للمدنية المزعومة .

ومن ثم تعامل هؤلاء مع المنهج الإسلامي بنفس المعطيات والآفات ، فحكموا عليه وعلى أتباعه وأنصاره ، والداعين إليه بأنهم من الذين يريدون عودة العالم من جديد إلى عصور الظلام والجهل والتخلف ، فوسموهم بالتخلف والرجعية والتأخر عن مواكبة مستجدات الواقع المعاصر ، مع أن الشريعة الإسلامية هي عدو للتخلف والتأخر والرجعية ، كما أنها أساس وعماد للحضارة الإسلامية طيلة عشرة قرون متتالية ، وستظل هكذا بأمر الله وحده .

ولم يقفوا عند هذا التغريب بل تعدى ذلك إلى إيجاد مدرسة أخرى من بين هؤلاء المسلمين ، تحمل سمومهم وأفكارهم وحقدهم على هذا الدين ، وأضفوا عليهم ألقاباً زائفة ليوهموا السائرين في ركابهم أنهم " المثقفون ، والمتقدمون ، والتنويريون ، والتطويريون ، والنخبة " ، إلى غير ذلك من أنواع النفخ والتكبير الذي لا يعدوا نفح الكرة بشئ من الهواء المعبأ ، فرجعوا إلى بلدانهم حاملين لكل تغريب وغريب ، ووقفوا أما دعوة الإسلام تأويلاً وتعطيلاً وتجهيلاً.

فخرج منهم الكتاب والأدباء والمثقفون ، الذين حملوا على الشريعة الإسلامية بالهدم للثوابت والأصول ، والاتهام بأنها قاصرة عن مواكبة مسيرة الحضارة العالمية المسرعة في التقدم والمدنية ، بل وعملوا على إحياء وتمجيد كل خبيث وماضٍ من التراث الفرعوني والإغريقي والروماني والوثني ، وإحياء النعرات القومية والوطنية والحزبية ، التي لا تزيد في أمة الإسلام إلا تفرقاً وشتاتاً ، واحتراقاً من لفح الجاهلية الغربية المعاصرة منها والبائدة على طول التاريخ .

ومن هنا وقفت المدرسة التغريبية موقف العداء الصارخ لدعوة الإسلام عموماً ، المتمثلة في السلفية خصوصاً دون غيرها من سائر الدعوات والحركات الدعوية المعاصرة إلا ما ظهر منها ، وتولد من كل هذا أجيال وأجيال ، أصابها الخور والوهن وحب التقليد

الأعمى لكل دخيل ومستغرب ، ولو كان يتنافي بوضوح ودلائل وبراهين مع مسلمات وأصول الشريعة الإسلامية ، هذا من حيث العداء للمنهج والإسلام .

3 – منهج منتصر:

نعم ، فمع كل ما ذكرنا من تطاول سافر، وتجهيل وتغريب إلا أننا نقول لهم قول الله تعالى تهديداً ووعيداً "اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير"، وقوله تعالى"وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

نقول لهم لا نقول عن الإسلام بكماله وصفائه وشموله وصلاحيته الخالدة إلى يوم الدين، إلا أنه منهج منتصر، منهج له الحكم والسيادة مهما طال الزمان ، واشتدت المحن، ورصدت العقبات، منتصر.. لأنه من عند الله ، ومنتصر .. لأنه منهج الله، ومنتصر...لأنه كلمة الله هي العليا أبداً ودائماً ، ومنتصر.. لأنه منهج معصوم لا يعتريه الخطأ والزلل، ومنتصر .. لأنه يملك كل مقومات البقاء، وكل مقومات الظفر والاستمرار والنصر.

نعم إن المستقبل القريب لهذا المنهج الرباني ، وهذا وعد الله تعالى ولا ريب كما قال تعالى :"كتب الله لأغلبن أنا ورسلي "، "وإن جندنا لهم الغالبون"، "وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ".

* * *

تاريخ
من الانحراف في تفسير القرآن

هذه لمحةٌ إجمالية عن وجوبِ وضرورة اتِّباع القرآن، والإيمان بمُحْكَمه ومتشابهه، وبيان بعضٍ مِن الصور التاريخية لانحرافِ كثير من الفِرَق عن الفَهْم الصحيح للقرآن وتفسيره، وكذلك انحرافهم عن منهجِ الاستدلال الصحيح لدَى أهْل النفسير والقُرآن؛ ممَّا أدَّى إلى انحِراف هؤلاء في العقيدة والعِبادة والفِكْر والعمل.

أولاً: وجوب الإيمان بالقرآن مُحْكَمه ومتشابهه، والوقوف على التفسير الصحيح لمعانيه:

إنَّ القرآن كتابُ الله تعالى المنزَّل، وبيانه المُحْكَم، وصراطه المستقيم، عِصمة لِمَن اتَّبعه، وهداية لِمَن آمن به وصدَّقه، وإنَّ من المسلَّمات الإيمانية، والمعالِم الشرعية، أنَّ القرآن مُحكَمٌ ومتشابِه، ولكلِّ نوعٍ صُورُه وأمثلته.

والواجب في ذلك على المسلِم الإيمانُ والتسليم به، وردُّ المتشابه منه إلى المحْكَم، كما نصَّ الله تعالى في كتابه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: 8 – 7].

ولا يُمكِنِنا أن نتكلَّم هنا على هذه الآية الكريمة إلا بالوقوفِ على بعض أقوال المفسِّرين؛ ليتجلَّى لنا مرادُ الله تعالى من قولِه.

قال ابن كثير الدمشقي – رحمه الله – في تفسيره: "يُخبِر تعالى أنَّ في القرآن آياتٍ محكَمات هُنَّ أمُّ الكتاب؛ أي: بيِّنات واضحات الدلالة، لا الْتباسَ فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أُخَر فيها اشتباهٌ في الدلالة على كثيرٍ من الناس أو بعضهم.

فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضِح منه، وحَكَّم محكَمه على متشابهه عندَه، فقد اهتدَى، ومَن عكس انعَكَس؛ ولهذا قال – تعالى –: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي: أصْلُه"[1].

وقال السعديُّ – رحمه الله – في تفسيرها: "القرآنُ العظيم كلُّه مُحكَم؛ كما قال – تعالى –: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3]، فهو مشتملٌ على غاية الإتقان والإحْكام والعدل والإحسان، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50]، وكلُّه متشابهٌ في الحُسْن والبلاغة، وتصديق بعضه لبعضه، ومطابقته لفظًا ومعنًى.

وأمَّا الإحْكام والتشابه المذكور في هذه الآية، فإنَّ القرآن كما ذكَرَه الله ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾؛ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شُبهة ولا إشكال ﴿ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ﴾؛ أي: أصْله الذي يَرجع إليه كلُّ متشابه، وهي مُعظَمُه وأكثره، {وَ} منه آيات ﴿ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾؛ أي: يلتبس معناها على كثيرٍ من الأذهان؛ لكونِ دَلالتها مُجْملة، أو يتبادر إلى بعضِ الأفهام غيرُ المراد منها.

فالحاصِل: أنَّ منه آياتٍ بينةً واضِحة لكلِّ أحد، وهي الأكثرُ التي يرجع إليها، ومنه آيات تُشْكِل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يُردَّ المتشابه إلى المحْكَم، والخَفي إلى الجلِّي، فبهذه الطريق يُصدِّق بعضه بعضًا، ولا يحصل فيه مناقضَة ولا معارَضة"[2].

الحِكْمة مِنَ اشتمال القرآن على المحكَم والمتشابه:

ومِن هنا وجَبَ على المسلِم الإيمانُ بالكتاب المحكَم منه والمتشابِه، وألاَّ يضرب الآياتِ بعضَها ببعض، ولا يُؤَوِّلها تؤيلاً لا يستقيم معها، ولا يُعبِّر ويُدلِّل على مرادِ الله فيها، بل يردّ المتشابه مِن الآيات، وهو قليلٌ بالنسبة إلى المحكَم منها، وهو كثيرٌ في كِتاب الله تعالى، مع العِلْم بأنَّ الله تعالى لم يجعلْ هذا المتشابه في كتابه إلاَّ لِحكمة أرادها - سبحانه وتعالى.

قال ابن عثيمين - رحمه الله - في "أصول في التفسير": "لو كان القرآنُ كلُّه محكَمًا، لفاتتْ الحكمة من الاختبار به تصديقًا وعملاً؛ لظهور معناه، وعدمِ المجال لتحريفه، والتمسُّك بالمتشابه منه ابتغاءَ الفِتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كلُّه متشابهًا لفاتَ كونُه بيانًا وهُدًى للناس، ولما أمْكَن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه"[3].

وقال أبو بكر الجزائري - حفظه الله -: "ومنه آياتٌ أُخَر متشابهات، وهي قليلةٌ، والحِكمة من إنْزالها كذلك الامتحان والاخْتِبار، كالامتحان بالحلال والحرام، وبأمورِ الغيْب؛ ليثبتَ على الهداية والإيمان مَن شاء الله هدايتَه، ويزيغَ في إيمانه ويضلَّ عن سبيله مَن شاء الله تعالى ضلالَه وعدم هدايته؛ فقال - تعالى -: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: 7]؛ أي: ميل عن الحق ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: 7]؛ للخروج به عن طريق الحقِّ، وهدايةِ الخَلْق، كما فعل النصارى حيث ادَّعَوْا أنَّ الله ثالثُ ثلاثة؛ لأنَّه يقول: نخلق ونُحيي"[4].

كما أنَّ على المسلِم أن يعلمَ أنَّ مِن تعظيم النصوص الشرعية الإيمانَ بالمتشابه، والعملَ بالمحكَم، مما في كتاب الله تعالى ووحْيه المنزل؛ كما قال تعالى عن حالِ أهل الإيمان: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: 7].

أمَّا حال أهل الزَّيغ والضلال، فهُم على خلاف أهل الإيمان، فحالُهم كما قال - تعالى -: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ [آل عمران: 7].

وجاء في الحديث: ((إنَّ القرآن لم ينزلْ يُكذِّب بعضُه بعضًا، بل يُصدِّق بعضُه بعضًا، فما عرفْتُم منه فاعملوا به، وما جَهِلتم منه فردُّوه إلى عالِمِه))؛ وهو حديث عند الإمام أحمد، وصحَّحه العلاَّمة أحمد شاكر.

وقال الضحَّاك: نعمل بالمحكَم، ونُؤمن بالمتشابِه، ولا نعمل به، وكلٌّ من عند ربِّنا.

وهذا ما كان عليه الصحابةُ ومَن تبعهم، وأئمة الهدى الأربعة، وأئمَّة الحديث من أهل السُّنة جميعًا، وما خالَف في ذلك أحدٌ إلا مَن شذَّ من أهل البِدع والأهواء، والزَّيْغ والضلال، الذين قالوا بتعارُض الأدلَّة في القرآن والسُّنة، وتوهَّموا ذلك في نصوصٍ كثيرة.

ولو ردُّوا المتشابه منها إلى المحكَم لَمَا صار هناك تعارضٌ ولا تأويل مخالِف، لكنَّه اتباع الأهواء، ومخالفة الطريق، والهُدَى والسُّنة، وهذه طرق أهل البِدع والضلال في كلِّ زمان ومكان.

وما كتاب شيخ الإسلام في درْء ورد ما زعموا من تعارُض العقل مع النقل، إلا فِقهٌ بيِّن لحقيقة هذه الفِرق والمذاهب، وخطرها على عقيدةِ الإسلام وسائرِ شرائعه.

إنَّ منهج الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين قام في حقيقةِ الأمر على تعظيمِ نصوص الوحيين القرآن والسُّنة، وكمال التسليم لهما، أمَّا المخالِفون لمنهجهم وطريقهم مِن أهل البِدع والأهواء، فقد زلَّتْ أقدامهم، وضلَّت عقولهم في ذلك، فحرَّفوا وغيَّروا، وبدَّلوا وأوَّلوا، ووقَعوا في الفتنة والزيغ والضلال، فضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل، وإنَّ الحق والهُدى والنجاة في متابعةِ ما كان عليه أصحابُ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فإنَّهم كانوا على الهُدَى المستقيم.

ثانيًا: نشأة التفسير وأهميته:

ونظرًا لِمَا سلَف ذكْرُه من الإشارة إلى كوْن القرآن محكَمًا ومتشابهًا، وكذلك لحاجة الناس إلى معرفة معاني القرآن، والكشْف عن مرادِ الله تعالى فيها، فقد دعتِ الحاجة إلى قيام علم "التفسير" لكتاب الله تعالى.

و(التفسير) - كما بيَّنه أهل العلم - مِن (الفَسْر)، وهو الكشْف عن معاني القرآن الكريم، وبيان مرادِ الله فيها، وتبيين ذلك للناس.

وقد نشَأَ منذ عصْر الصحابة عِلمُ التفسير القرآني، فقد أصبح الناس يسألون بعضَ الصحابة عن معاني بعض الآيات، وبعضُ الصحابة كانوا على عِلْم كامِل بمعاني القرآن.

وكانوا يفسِّرون القرآن مع إقرائه، أو دون إقرائه، حتى رُوي أنَّ ابن عباس - رضي الله عنهما -: فسَّر مرَّةً سورة البقرة، وفي رواية سورة النور في الحج، تفسيرًا لو سمعتْه الروم والتُّرك والديلم لأسْلَموا[5].

وبذلك بدَأَ عِلم التفسير، ثم أخَذ ينمو نموًّا مطردًا ويتنوَّع، ولما ظهرتِ الفِرَق الإسلامية، أصبحتْ هذه الفِرق تحاول أن تفسِّر القرآن حسبَ آرائها، وأصبح التفسير في بعض الأحيان يتَّبع الرأي، ولا يتَّبع الرأي القرآني.

وهذا الذي حذَّر منه رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - حين قال: ((مَن قال في القرآن بغيْر عِلم - وفي رواية: برأيه - فليتبوأ مقعدَه من النار))، فالتفسير بالهوى هو الضلال، وليس طبعًا التفسير الذي يقوم على فَهْم سليم للغة العربيَّة، وفهْم دقيق للسُّنة وأقوال الصحابة[6].

* * *

ثالثًا: صور تاريخيَّة من الانحراف في تفسير القرآن:

وإنَّ الناظِر إلى الواقع المعاصِر يرى مِن الناس مَن قد أخطؤوا الطريق إلى فَهْم معاني القرآن وألْفاظه، وانحرَفوا بعيدًا عن حقيقةِ الإيمان والتسليم بالمحكَم منه والمتشابه.

ووقَعوا عمدًا أو خطأً منهم في صور مِن الانحراف أو التحريف، والتأويل الفاسِد للنصوص، الذي لا يدلُّ على حقيقةِ مراد الله تعالى من كلامه المنزل، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: 7].

وهذا مسْلَكٌ انحرافي خطير، وله جذور تاريخيَّة طويلة ممتدة عبْرَ التاريخ الإسلامي، نشير إليها بإيجاز:

1- الخوارج:

بعد بَعْثة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ظهَر الخوارج في عصْر الصحابة - رضي الله عنهم - حيث وقَعوا في صُورِ الانحراف والتأويل الفاسِد.

لأنَّهم أساؤوا فهْمَ معاني القرآن، وحملوها على غيْر وجهها الصحيح، حتى إنَّهم خرَجوا على عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد وقْعة صِفِّين، وأنكروا عليه التحكيم.

واحتجُّوا لذلك من القرآن بأنَّ مَن حَكَم بغير حُكْم الله تعالى فقد كَفَر، وهذا تأويلٌ فاسِد منهم للقرآن، وتحريفٌ واضح لمراد الله تعالى، فردَّ عليهم عبدُالله بن عبَّاس - رضي الله عنهما - وناظَرَهم بالحُجَّة الواضحة مِن كتاب الله تعالى.

2- الشيعة والروافض:

وكذلك فعلَتْ كثيرٌ من فِرَق الشِّيعة، وفي مقدِّمتهم الروافض الاثنا عشرية؛ حيثُ قالوا بأنَّ القرآن له ظاهرٌ وباطن: "أي: إنَّ للقرآن مراتبَ من المعاني المرادة بحسبِ مراتب أهله، ومقاماتهم، وأنَّ الظهر والبطن أمرانِ نسبيَّانِ، فكلُّ ظهر بطن بالنسبة إلى ظهره وبالعكس"[7].

بل واتَّهموا القرآن نفسَه بأنَّه كتاب محرَّف، وليس هو كتابَ الله الصحيح، فقالوا: "إنَّ القرآن الذي جمعَه عليٌّ - عليه السلام - وتوارثه الأئمَّة من بعده، هو القرآن الصحيح، الذي لم يتطرَّق إليه تحريفٌ ولا تبديل، أمَّا ما عداه فمحرَّف ومبدَّل، حُذِف منه كلُّ ما ورد صريحًا في فضائل آل البيت، يروي الكافي عن الصادق: أنَّ القرآن الذي نزَل به جبريلُ على محمَّد سبعةَ عشرَ ألف آية، والتي بأيدينا منها سِتَّة آلاف ومائتان وثلاث وستُّون آية، والبواقي مخزونةٌ عند أهل البيت فيما جمعَه علي"[8].

ومن تأمَّل أصول "الكافي"، وجَد الكثيرَ من تحريفهم لآيات القرآن، حيث قالوا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء: 137]: إنَّ هذه الآية نزلَتْ في أبي بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبيِّ أولاً، ثم كفَروا حيث عُرِضت عليهم ولايةُ علي، ثم آمنوا بالبَيْعة لعلي، ثم كفَروا بعدَ موت النبي، ثم ازدادوا كفرًا بأخْذ البيعة من كلِّ الأمَّة[9].

3 - الفرق الصوفية:

وكذلك فِرق الصوفيَّة، أدخلت أذواقَها، وكشفَها الموهوم على نصوصِ القرآن وتفسيره، فوقعتْ في فوادح وقوادح مِن الأخطاء العقدية والشرعيَّة، واللُّغوية وغيرها.

لأنَّهم لم يتأصَّلوا حقيقةً على فهْم معاني القرآن على الوجهِ الصحيح المنقول، ولا على طُرُق الاستدلال الصحيحة المعتبَرة بشروطها.

فالصوفية: وقعَت في تعظيم شيوخ طُرقِهم وأقطابهم، وقالوا: هم الأولياء فحسبُ، وهم الأقطاب والأبدال، حتى صرَفوا لهم في قبورهم العباداتِ الشرعيةَ التي لا تكون إلا لله تعالى وحْده لا شريكَ له.

وكذلك وصْفهم بتدبيرِ الكون مع الله تعالى، وتصريف أمورِ الخلْق ونظرهم في المقادير، فيأخذون عن شيوخهم كلَّ ما صدَر عنهم حقًّا كان أو باطلاً.

ولا يردُّون ذلك إلى الشريعة والنصوص من الكِتاب والسُّنة كما فعَل الشِّيعة تمامًا مع أئمَّتهم، بل ويأمر هؤلاء باتِّباع الطرق الصوفيَّة والاقتداء بشُيوخها وتقليدهم، فصاروا مقلِّدين لهم بلا هدايةٍ من الله ورسوله.

واعتمدوا كثيرًا على ما سمَّوْه الكشْف والإلْهام من الرُّؤى والأحلام، وأنَّ هذا الكشْف ممَّا اطَّلع عليه الأولياءُ بعِلمهم للغيْب، وأنَّها حق كأنَّها رؤيا الأنبياء والرُّسل، وجعلوها مصادمةً للقرآن والسُّنة، مضاهية لها كالحُجَّة والبرهان.

وما أجلَّ قولَ الشافعي – رحمه الله تعالى –: "كلُّ شيء خالَف أمر رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – سقَط، ولا يقوم معه رأيٌ ولا قياس، فإنَّ الله قطَع العذر بقول رسولِ الله، فليس لأحدٍ معه أمرٌ ولا نهي، غير ما أمَر به ونَهَى عنه"[10].

وممَّا أخطأ فيه القومُ تفسيرُهم لقول الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99]، فقالوا: إنَّ اليقين هنا هو "المعرفة"، فإذا حصلتِ المعرفة سقَطتِ العبادات والتكليف.

وهذا من أشنعِ القول على الله وكتابه، لأنَّ اليقين هنا باتِّفاق أهل التفسير هو "الموت".

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "وهذا خطأٌ بإجماع المسلمين – أهل التفسير وغيرهم – فإنَّ المسلمين متفِقون على وجوب العبادات كالصَّلوات الخمس ونحوها، ولو بلَغ ما بلَغ"[11].

4– المعتزلة والمدرسة العقلانية الحديثة:

وكذلك فعلتِ المعتزلةُ حيث قدَّموا كثيرًا عقولهم، وما آلتْ إليه أفهامُهم على نصوصِ القرآن، وكذلك السُّنة، وناقضوا بذلك كثيرًا من حقائقِ الوحيَيْن، وحاولوا إخضاعَ النصوص لأفهامهم، وألْقوا أصولَ الاستدلال الصحيح مِن القرآن والسُّنة والإجماع واللُّغة وغيرها خلف ظهورهم، وذَهبوا في تفسير الآيات مذهبًا بعيدًا إلى حدِّ التناقض العقلي، فضلاً عن التناقُض للشريعة ونصوصها الواضِحة البينة.

ودرَج على آثارهم أصحابُ المدرسة العقلية الحديثة؛ حيث إنَّهم توسَّعوا كثيرًا في تفسير القرآن الكريم على ضوْء العلم الحديث بكلِّ جوانبه، ولو أدَّى ذلك إلى استحداثِ أقوال مجانِبة لدَلالات الآيات اللُّغوية، ومعارَضة للمنقول عن السَّلف[12].

يقول أحدُ أقطاب هذه النَّزعة العقلية المعاصِرة حسن حنفي: "النصوصُ الشرعية ليستْ حُجَّة، والعقل أقوى في الاحتجاج منها، ويقول أيضًا: لا سُلطان إلاَّ للعقل، ولا سُلطةَ إلا لضرورة الواقِع الذي نعيش فيه"[13].

وقد أفرزتْ هذه المدرسةُ على هذا الأصْل عندهم انحرافاتٍ في فَهْم القرآن والسُّنة، حيث قالوا بأنَّ اليهود والنصارى ليسوا من أهل الكُفر، ودعَوْا إلى ما سمَّوْه بوَحْدة الأديان، وفسَّروا الآيات في ذلك بحسب مرادِهم وأهوائهم العقليَّة والذوقيَّة.

يقول روجيه غارودي: "لا يمكن أن نستبعدَ الأديان الأخرى باسم أيِّ دِين، بل على العكس يجب أن نبحثَ عن الذي يجمعنا مع الأديان الأُخرى" [14].

ولا شكَّ أنَّ هذا تحريفٌ لمعاني القرآن، أنَّ الدِّين الحق عند الله هو الإسلام، وأنَّ اليهود والنصارى وغيرهم مِن أهل الكفر والشِّرْك.

والأخْطَر من ذلك في مسلكهم هذا ذوبانُ الشريعة الإسلامية وأحكامِها على مرِّ العصور، حيث إنَّنا لو تعاملْنا مع نصوص الكتاب والسُّنة - كما تقدَّم آنفًا - بهذا المنطلق المنعزِل عن فهْم الوحي وَفقَ المراد الربَّاني والنبوي الصحيح، لأدَّى ذلك إلى نُقصان الأحكام الشرعيَّة في شتَّى مجالات الحياة سياسيةً كانت أو اقتصاديةً، أو أخلاقيةً أو تعبدية، أو عقديَّة أيضًا، ولأدَّى إلى ذوبانها على مرِّ العصور والأزمان، فرأينا شريعةً وأحكامًا متناقضةً تمامًا مع الوحي المعصوم من الكتاب والسُّنة!

لأنَّ هذه المدرسةَ وقفتْ من نصوص الوحيَيْن المعصومَيْن موقفًا متناقِضًا، حيث يقولون: إذا تعارَض العقل والنقل قُدِّم العقل على النقل.

ولا ريبَ أنَّ هذا سخف من القول وضلال؛ إذ إنَّ موجب العقل يقتضي خلافَ ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ الله تعالى ما أوْجد العقل ليتناقضَ مع وحيه المنزل، هذا مِن وجه.

أما الوجه الآخر: أنَّ نصوص الكِتاب والسُّنة لا يكون فيها اختلافٌ ولا تعارض في الأصْل؛ لأنَّ الله تعالى لا يجمع في شريعته ودِينه ما يخالف بعضُه بعضًا، وينقُض بعضُه بعضًا.

إنَّما التعارُض في قصور الفَهْم الصحيح لمراد الله تعالى ومرادِ رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وقد تكلَّم الفقهاءُ والأصوليُّون في هذه المسائل، وبيَّنوا طرقًا كثيرة في رَفْع توهُّم التعارض بيْن النصوص الشرعية.

وأما الوجه الثالث: أنَّهم ما حقَّقوا الإيمان والتسليم لمراد الله ومراد رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إذ إنَّ العقل يقتضي أنَّ التسليم والإذْعان مِن كمال الإيمان بالوحيَيْن الصافيين القرآن والسُّنة، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينا ﴾ [الأحزاب: 36].

وقوله تعالى: ﴿ فلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُـمَّ لاَ يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما ﴾ [النساء: 65].

وكلام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنَّ الدِّين لو كـان بالعقـل، لكـان المسْـحُ على الخفَّين من أسفل.

فهذه المدرسةُ العقلية لا تحمِـل منهجًـا عقـديًّا صـحيحًا واضـحًا، تُقدِّمـه لأتباعهـا والمخدوعين بها، ولا تُحسِن إلى اليـوم إلا ضرْبًـا مـن علـوم المناطِقـة والفلاسـفة، الـذين عارَضوا الشرائع بالآراء والفلسفات الكلاميَّة، وهم يظنُّون أنَّهم على بـابٍ مـن العلـم لا يُحسنه غيرُهم.

فأنكروا الغيبيَّات كالملائكة، وعذاب القبر، ومعجزات النبي – صلَّى الله عليه وسـلَّم – الحِسيَّة، ومنهم مَن وقَع في التأويل الباطل الذي ليس له من الشَّرْع دليلٌ ولا برهان.

وهذه المدرسةُ لها اليوم أتباعٌ كُثر هنا وهنالك، والمتأمِّل البصير، يُدرِك ذلك مِن سَقْط حديثهم، وحِبْر أقلامهم، ومنهجهم الذي رَسموه.

5 – القرآنيون:

وتَبع هؤلاء أيضًا هذه الفِرْقة التي سمَّت نفسها بالقرآنيِّين، الذين نفَوُا السُّنة النبويـة، وألْقوها وراء ظُهورِهم نفيًا وإعْراضًا وسُخرية.

وقالوا ما نفعل بالسُّنة وعندنا كتابُ الله فيه الحقُّ والنور، وفيه البَيان الشافي والكافي، ووَقَفوا عندَ ذلك؛ ليُوهِمـوا الجهَلـة والرعـاع أنَّهـم متبعـون للكتـاب، ملازِمـون للحـق والصواب، ولكن هيهات هيهات!!

كيف يتَّبعون القرآن فحسبُ، وهم يقرؤون مِئات الآيات التي تُخبرهم وتأمرُهم بوجوبِ متابعة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسُنَّته وحُكمه وشريعته.

وحسبهم أن يقرؤوا قولَ الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: 80].

وقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: 7].

وهؤلاء الَّذين أطلُّوا علينا في هذا الزمان، أخْبر عنهم رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - في قوله: ((لا ألفين أحدَكم متكئًا على أريكتِه، يأتيه الأمرُ ممَّا أمَرْتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدْري، ما وجدْنا في كتاب الله اتبعناه))؛ أخرجه الترمذيُّ بسند صحيح.

وهذا ما وقَع فيه القوم، ولا نَدْري مِن أين سيأتي أمثالُ هؤلاء بأرْكان الوضوء كلِّها وسُننه وآدابه؟ ومِن أين سيأتون بعددِ ركعات الصلوات، وسجودها، وسُننها وآدابها، أو الزكاة والحج والصيام؟ من أين سيعلمون أنَّ الجَمْع في الزواج بيْن المرأة وعمَّتها أو خالتها مُحَرَّم شرعًا، أو تحريم كلِّ ذي ناب من السِّباع، وكل ذي مِخْلَب من الطيور؟! أو.. أو.. إلى آخِره.

وما كلُّ هذه البلايا والطَّوام، وهذه الرَّزايا العِظام، إلا مِن جرَّاء نقْص أو نقْص هذه القاعِدة الجليلة، مِن كمال التعظيم والتسليم لنصوص الشرْع الحنيف مِن كتاب الله وسُنَّة رسوله في قلوبهم، وكما أخْبر سبحانه في كتابه عن أمثال هؤلاء: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: 63].

وهُنا يظهر لنا الفارِقُ الكبير بيْن هذه الفِرق والأهواء وبيْن الصحابة - رضي الله عنهم - في كمال تعظيمهم وتسليمهم للنصوص الشرعيَّة، وكمال الإيمان بجميع نصوصِ الكتاب والسُّنة دون ترْك شيءٍ منها، ولا حتَّى ترْك العمل بها.

6- المدرسة التغريبيَّة الحديثة والتيار العلماني:

وكذلك فعلتِ المدرسة التغريبيَّة والعلمانيَّة المعاصِرة، حيث إنَّها انتشرتْ في بلاد الشَّرْق مع مطلع القرن التاسعَ عشرَ، ثم اتَّسعتْ بمذهبها ومنهجها المادي، بعيدًا عن الدِّين والأخلاق والقِيَم، حاولتْ هذه المدرسة الولوجَ في النُّصوص الشرعية، وعلى رأسِها القرآن والسُّنة، والتلاعُب بتأويلها وتحريفها؛ ليفرِّغوا الإسلامَ من محتواه وأدلَّته، فيسقط كورقةِ التُّوت بزعمهم.

وقد برَز كثيرٌ منهم بمنهجه ومذهبه في ذلك، حيثُ قال طه حسين في "الشعر الجاهلي": "للتوراة أن تُحدِّثَنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدِّثَنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذَيْن الاسمين لا يَكفي دليلاً على وجودِهما التاريخي، ونحن مضطرون إلى أنْ نرى في هذه القصَّة نوعًا من الحيلة في إثبات الصِّلة بيْن العرَب واليهود مِن جهة، وبيْن الإسلام واليهوديَّة مِن جهة، والقرآن والتوراة من جِهة أخرى"، "وإذًا ليس هناك ما يَمنع قريشًا أن تَقْبَل هذه الأسطورةَ التي تُفيد أنَّ الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم"[15].

فتأمَّل كيف يُكذِّب القرآن الصريح، بل ويُكذِّب تاريخ العرَب في أرْض الجزيرة، وها هو القرآن يردُّ هذا الهراء البَشَري؛ قال - تعالى -: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 124- 127].

ويقول أحدُهم - في جرأة يُحسَد عليها - محمد أحمد خلف الله في "الفن القصصي في القرآن": "القِصَّة في القرآن لا تلتزم الصِّدقَ التاريخي، وإنما تتَّجه في تصوير الحادثة تصويرًا فنيًّا"، ويقول: "تصويرُ أخلاق الأُمم كبني إسرائيل ليس بالضرورة أن يكون واقعيًّا".

ويقول: "وقصَّة إبليس مِن نوع الخَلْق الفني الذي يتشبَّث فيه القرآن بالواقع".

إلى غير ذلك مِن أكاذيبه وكهانته، التي سوَّد بها رسالته، ممَّا أدَّى إلى إحالة الأمْر إلى الشيخ محمود شلتوت سنة 1947م، وإخراج تقرير يُفيد بتطاول صاحبِها على القرآن والذَّات الإلهيَّة والعقيدة الإسلاميَّة.

وهذه العلمانية حقيقةُ أمرِها أنها تهدف إلى غاياتٍ خبيثة ماكِرة، منها نزْع القَدَاسة والهَيْبة عن النصوص القرآنية، وهدْمها كمرجعية للمسلِمين، ثم إعمال مَكْرهم في نسْف كتُب التراث والسَّلف المتعلِّقة بالقرآن وتفسيره، وكوْنها متناقضةً فيما بينها، وأنَّها أقوالٌ بشرية لا قداسةَ لها ولا مكان.

يقول د. نصْر حامد أبو زيد: "إنَّ النص القرآني وإنْ كان نصًّا مقدَّسًا، إلا أنَّه لا يخرج عن كونه نصًّا، فلذلك يجب أن يخضع لقواعِد النقْد الأدبي كغيرِه من النصوص الأدبيَّة".

ويقول د. شحرور: "فماذا قدَّم السادة العلماءُ للناس؟ لقد تصدَّر العلماء المجالسَ والإذاعة والتليفزيون على أنَّهم علماءُ المسلمين، وجُلُّهم ناقِل، وليس بمجتهد؛ أي: إنَّهم قدَّموا لنا ماذا فهِم السلف من القرآن على أنَّه تفسيرٌ للقرآن"[16].

والأعجبُ في منهج هذه الفِئة المنحرِفة عنَ الإسلام والقرآن، أنَّهم يقولون بتطوُّر لُغة القرآن وألفاظه على مرِّ الزمان، حيث قالوا: إنَّ لفظ "مسلم، ومؤمن" في القرآن تطوَّر ليشملَ المسلمين واليهود والنصارى؛ نظرًا لتطوُّر المفاهيم الاجتماعيَّة، والوطنيَّة والسياسيَّة.

وكذلك: "مِلَّة إبراهيم" تطوَّرت إلى أن دخَل فيها وَحْدة الأديان المستحدَثة، وكذلك: "الحجاب الشرعي" يشمل كلَّ صور وألوان اللِّباس المتبرِّج العصري[17]!

والوقوفُ على حقيقةِ هذا المذهَب لا يُمكن بحال حصْره هنا، وإنَّما يرجع إليه في مصادرِه ومظانِّه، وكذلك كُتُب هذه المدرسة الخبيثة الجريئة على الدِّين والمبادئ والأخلاق.

الخلاصة والنتائج:

هذه صُور سريعة أشرتُ إليها على سبيلِ المثال والإجمال؛ تقريبًا لمنهج الفِرَق المنحرِفة في تفسير القُرآن، وما آلتْ إليه، في علاقتها العامَّة والخاصَّة مع تفسير الآيات القرآنية خاصَّة، والنصوص الشرعيَّة عامَّة، ويمكن أن نقِفَ مع خلاصة مِن هذه الصُّور المذكورة فيما يلي:

1- سُوء الفَهْم للنصِّ القرآني: سبب رئيس، وعامِل كبيرٌ في انحراف هذه الفِرَق والمذاهب قديمًا وحديثًا عن حقيقةِ التفسير، ومعاني القرآن الواضِحة المحكَمة.

2- الجهْل بأسباب النُّزول لكثيرٍ من الآيات: مما أدَّى إلى سوء الفَهْم والتطبيق معًا.

3- تقديم العقل بإطلاقٍ على النصِّ القرآني: مما أدَّى إلى تفسيراتٍ وفُهوم غير صحيحة، وغير مرادة، وكذلك تناقضات عقلية لا حَصْرَ لها.

4- التقليد الأعْمى للغرب: مما أدَّى إلى ازدِراء النص القرآني، والتنقيص منْه، واللهث وراءَ المادية الغربية، والعَبَث بتفسيراتِ النصوص وَفقَ ما يتوافق فيه الإسلامُ مع الغرْب، أو لا يتوافق.

5- عدم الْتزام الضوابطِ والأصول الصحيحة في تفسير كلامِ الله تعالى: وذلك بعـدم معرِفة مناهج المفسِّرين، ومعرفة قواعِدِ وأصول التفسير وعلوم القرآن، مِن تفسير القـرآن بالقرآن وبالسُّنة، وبأقوال الصحابة والتابعين، والإجْماع واللُّغة والقِياس الصحيح.

6- اتِّباع الأهواء: كما فعَل اليهودُ والنصارى والتعصُّب الأعْمـى البغـيض للـرأي، وتعمُّد إضلال الآخَرين أو تضليلهم، مِن أخْطرِ العوامل التي تؤصِّل في النفوس تحريـفَ النصوص للمصلحة، ولو عارضتِ النصوصَ معارضةً واضحة.

* * *

* الهامش:

---

[1] انظر تفسير ابن كثير.

[2] انظر: تفسير السعدي.

[3] أصول التفسير؛ لابن عثيمين (47).

[4] أيسر التفاسير؛ للجزائري.

[5] تفسير ابن كثير (1/ 8).

[6] جند الله ثقافةً وأخلاقًا (75).

[7] منهج الاستنباط، فهد الوهبي.

[8] التفسير والمفسرون (2/ 28 ، 29).

[9] المصدر نفسه (30).

[10] الأم (193).

[11] منهج الاستنباط، فهد الوهبي (365).

[12] التجديد في الفِكر الإسلامي؛ لعدنان أسامة (366).

[13] ظاهرة اليسار الإسلامي، الميلي.

[14] مجلة البيان، عدد (267).

[15] الشعر الجاهلي (43).

[16] التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن.

[17] المصدر نفسه.

الأحكام الشرعية بين وسائل الإعلام والإسلام

لا يزال الإسلام وأهله، وأحكامه وشرائعه، يتلقَّون ضربات وافتراءات من قِبَل مَن لا يرقبون في الإسلام وشرائعه إلاًّ ولا ذمَّة، ولا إيمانًا ولا عهدًا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 217].

وإنَّ من شر البليَّة اليوم ألاَّ يخوض في الإسلام وأصوله وثوابتِه أهل الكفر فحسْب، بل تعدَّى الأمر إلى أُناس يلبسون لباسنا، ويتكلَّمون بألسنتِنا، ويعيشون فيما بيننا، وينْتمون بهويَّتهم وعقيدتهم إلى دينِنا وشريعتِنا.

ثمَّ هم يتلاعبون بهذا الدّين وأصوله وثوابته، ويُحاولون جهلاً منهم أو عمدًا التَّلاعُب والعبث بكثيرٍ من أحكامه وشرائعه، كما أنَّهم أبانوا من خِلال ذلك عن عوَرهم وخطئِهم، وقلَّة بضاعتهم ومعرفتهم بحقيقة الإسلام وأحكامه.

ومن ذلك وسائل الإعلام المرئي منها والمسموع، وكذلك المقروء منها، على حدٍّ سواء، حيث أبانتْ بعض هذه الوسائل عن كثيرٍ من أصْحاب الأهواء والبِدَع من جانب، وأصحاب التَّغْريب والتَّقليد الأعْمى والمنافقين من جانبٍ آخَر، وهُنا لنا عدَّة مَحاور نقِف معها سريعًا في بيان بعض صور الانحِراف الإعْلامي عن المنهج الصَّحيح السويّ:

أوَّلاً: صور خطيرة من انحراف وسائل الإعلام:

بالتَّأمُّل والبحث يقِف جزءٌ من هذه الوسائل الإعلاميَّة تحت المسمَّى الإسلامي، والرّسالة الإسلاميَّة الهادفة، ويقف البعض الآخر تحت أيّ مسمَّى آخَر، لكن المؤلم حقًّا أن

يتمَّ في بعض برامجها التعرُّض لأحكام شرعيَّة ثابتة في كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وإجْماع الأمَّة الإسلاميَّة، **وذلك من خلال عدَّة صور ومَحاور، منها على سبيل البيان والمثال:**

1 – **التَّهوين من وجود الخلافات الواضحة والصَّريحة بين بعض الفرق – المنتسبة للإسلام جملة لا تفصيلاً**، ومحاولة إبرازها في ثوبٍ إسلامي صحيح، وأنَّها جزءٌ من المسلمين، ولا خلافَ بيْننا وبينهم.

وأوْضح مثال على ذلك الخلاف السنّي الشّيعي الإمامي على وجه أخصّ، حيث تلعب بعض وسائل الإعلام مثلَ هذا الدَّور، الخفي تارة والمعلن تارة أخرى بين الحين والحين، ويتذرَّع هؤلاء بأنَّ التَّعريف الصَّحيح بعقيدة الشّيعة وغيرهم كغلاة الصّوفيَّة وأقطابهم، يعود على الأمَّة الإسلاميَّة بالتَّقسيم والتفرّق والتشرذُم، وهذا – لعمر الله – عينُ الجهل، وقلَّة العلم، ولا حاجة لي هنا بذكر هذه الوسائل المرئيَّة والمسموعة وغيرها.

ولكن حسبي هنا أن أبين شيئًا من ذلك:

فالشّيعة الأول؛ لربَّما يتأوَّل لهم بعض أهل العلم بحُسْن النَّوايا منهم، وسوء الفهم لنصوص الكتاب والسنَّة، إلاَّ أنَّ شيعة زمانِنا لا يتأوَّل لهم بذلك إلاَّ السوقة والجهلة منهم ومن عامَّتهم، أمَّا علماؤُهم وأئمَّتهم الَّذين يزعمون فيهم العِصْمة والرِّفعة والتنزُّه عن الصغائر والكبائر معًا، لربَّما لا يغتفر لهم ذلك.

فعوام الشّيعة وسوقتهم وجهَلتهم قد يتأوَّل لهم أهل العلم بحُسْن النَّوايا وعدم علمهم بما يشتمل عليه مذهب الشيعة الإماميَّة الَّذي ينتسبون إليه من كفرٍ بواح، أمَّا علماؤُهم وأئمَّتهم فكيف يتأوَّل لهم، وكيف يعذرون في إقامتهم على هذا الكفر ودعوتِهم إليه، بعد أن طفحتْ به كتُب علماء مذهبهم قديمًا وحديثًا وهم على علمٍ صحيح بما وقعوا فيه من التَّحريف والتَّأويل الباطل، بل وإنشاء النّصوص والأدلَّة المزعومة من كتُب

أئمَّتهم وعلمائهم على صحَّة مذهبهم الباطل في جملته، وتكفيرهم وسبّهم لأصحاب النَّبيّ – صلَّى الله عليه وسلَّم، ورضي الله عنهم جميعًا – وبل وتفسيراتهم الباطلة لنصوص الكتاب والسنَّة، بل والمناقضة لها أشدَّ التَّناقض في حقّ علي – رضي الله عنه – وفاطمة والحسن والحسين – رضي الله عنهم جميعًا.

يقول نعمة الله الجزائري: "إنَّنا لا نَجتمع معهم – يقْصِد أهل السنَّة – على إلهٍ ولا على نبيٍّ ولا على إمام؛ وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ ربَّهم هو الَّذي كان محمَّد نبيَّه، وخليفته من بعده أبو بكر.. ونحن نقول: إنَّ الربَّ الَّذي خلق خليفةَ نبيِّه أبا بكرٍ ليس ربَّنا، ولا ذلك النبيُّ نبيّنا"[1].

وكذلك قولهم بتحْريف القرآن، ولا أريد أن أنقل كثيرًا من كلامهم كما جاء في "الكافي" عن جعفر بن محمد الصَّادق قوله: "عندنا مصحف فاطمة – عليها السَّلام – وما يُدْريهم ما مصحف فاطمة؟! مصحف فيه مثل قرآنِكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنِكم حرف واحد"[2].

ويقول محمد باقر المجلسي: "إنَّ كثيرًا من الأخبار صريحة في نقْص القرآن وتغْييره، ومتواترة المعنى"[3].

وقال نعمة الله الجزائري: "الأخْبار مستفيضة بل مُتواتِرة، وتدلُّ بصريحِها على وقوع التَّحريف في القرآن كلامًا ومادَّةً وإعرابًا"[4].

ويقول الخميني: "لقد كان سهلاً عليهم – أي على الصحابة الكرام – أن يُخرجوا هذه الآيات من القرآن، ويتناولوا الكتاب السماويَّ بالتحريف، ويُسدِلوا الستار على القرآن، ويُغيِّبوه عن أعين العالمين.. إنَّ تهمة التَّحريف الَّتي يوجِّهها المسلمون إلى اليهود والنَّصارى، إنَّما ثبتتْ على الصَّحابة"[5].

وجاء في "فصل الكتاب" عن النوري الطبرسي أنَّ الصَّحابة ما صانوا أمانة القُرآن حتَّى أسقطوا آية الولاية من سورة الشرح، "ألَمَ نشرح لك صدرك"، وهي: "ورفعنا لكَ ذكرك، بعليٍّ صهرك".

ولكنَّ الأدهى من ذلك في الواقع المعاصر اليوم أن تتحوَّل الشّيعة من مذهب وفرقة تنتسب إلى الإسلام بما لديْها من أفكار ومعتقدات وأهواء، تتحوَّل إلى مذهب سياسي، له قواعده وأصوله وأفكاره ومناهجه، فمنذ نشْأة ما تسمَّى بثورة الخميني الخمسينيَّة لاجتياح العالَم الإسلامي وتشْييعه، والدَّولة الفارسيَّة تتفاخر بأنَّها فارسيَّة الأصل والنَّسب والمعتقد كذلك.

بل وتسعى كذلك بما تملك من مقدَّرات للتدخُّل الكبير المباشر وغير المباشر في شؤون المسلمين هنا وهنالك، ومُحاولات كثيرة من ذلك قد نشأتْ كهذا الحزب الذي يسمَّى بـ "حزب الله" وما هو بحزب لله، وكذلك تدخُّلهم في شؤون العراق.

بل ونصْب المحارق والمشانق لأهل السنَّة هناك، الواقع العراقي اليوم خير شاهد على ذلك، ولم يلبث الشّيعة أن سعَوا بِجهود خفيَّة تارة ومعلنة تارة لتشْييع العالم الإسلامي، وزيادة المدِّ الشِّيعي الماكر فيه، وعلى رأسِه بلاد الحرمَين ومهبط الوحْيَين السعوديَّة وأرض الكنانة مصر، ومحاولة استِرْجاع دولة العبيديّين والفاطميّين التي اجتاحت العالَم الإسلامي منذ قرون ليستْ بالبعيدة، وانتشارهم في البحرَين والكويت والإمارات وغيرها من الدُّول الإسلاميَّة والعربيَّة.

وممَّا يؤسف له حقًّا أن تفتح لهم بعض الدُّول وتتيح لهم الحركة والحرّيَّة تحت مسمَّى حرّيَّة الأفكار والمعتقدات، حتَّى إذا وقعت الكارثة وبان الخفي من المكْر والعبث، اضطرَّت باتِّخاذ الإجراءات اللازمة، وهذا لا ريب نوعٌ من العبث أيضًا بمعتقدات الأمَّة أن تسمح دول أهل السنَّة، أن يسبَّ أصحاب الرَّسول - صلَّى الله عليْه وسلَّم - بل

وزوجاته الطَّاهرات العفيفات، وأن يكفِّروا أعلام الأمَّـة وأسـيادها مـن أمثـال الصّـدّيق والفاروق وعثمان، ممَّن زكَّاهم القرآن وزكَّاهم النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأن تؤسَّس لهم المقارّ والمؤسَّسات تحت أسماء ومسمَّيات، فهذا كلّه ممَّا يؤسَـف لـه حقًّـا في بـلاد تقـرّ بالتَّوحيد وتوقِّر الصَّحابة وتقرأ القُرآن في حقِّهم.

لقد تحوَّل مسارهم إلى مطامع سياسيَّة وجغرافيَّة، إلى كونهم معتقدًا خبيثًا ماكرًا جمـع من كلّ ملَّة ما يهوى، وخلط مـا بـين الإسـلام واليهوديَّـة تـارة والنَّصرانيـة تـارة أخـرى والصوفيَّة وغيرها، كما جاء عند الكليني في "أصول الكافي" عن زرارة بن أعين: "ما عُبِـدَ اللهُ بشيءٍ مثل البداء".

كما يروي عن أبي عبدالله زاعمًا أنَّه قال: "ما تنبَّأ نبيٌّ قطّ حتَّى يُقرَّ لله بخمْس: بالبـداء والمشيئة والسّجود والعبوديَّة والطَّاعة"، وهذا البداء يعنـي أن يظهـر الأمـر بعـد أن كـان خافيًا، وفي هذا تنقُّص لجناب الله تعالى[6].

إنَّ الشّيعة خطر قادم ومكْرٌ داهم، إذا لم يتنبَّه له المسلمون عامَّة، وعلماء الأمَّة والدعاة وكذلك السَّاسة وأصحاب القـرار خاصَّـة، وإلاَّ إن كنَّـا نتخـوَّف مـن الخطـر الصـهْيوني اليهودي والخطر الغربي الصَّليبي فأقول: إنَّ الخطر الشّيعي هو الخطَـر والخنـدق الحقيقـيّ القريب إلَيْنا؛ لأنَّه يلبس لنا عباءة الإسلام والتديُّن المزعوم، ولأنَّ كثـيرًا مـن النَّـاس مـن اليسير جدًّا أن ينخدع بدعاوى محبَّة أهل البيت والتغنِّي بـذلك، فـإذا بـه في شراك القـوم وهو لا يدْري.

وهذا الدَّور يمارسه بعض وسائل الإعلام، حيثُ الدَّسّ والتَّدليس والتَّأويل الَّذي لا محلَّ له مِن الشَّريعة الإسلاميَّة.

ثمَّ تنادي هذه الوسائل بالتَّقريب بيْننا وبين الشّيعة، كما تنادي تمامًا بالتَّقارُب بين الأديان، ولست أدْري ما هي صورة التَّقارُب المثلى التي يسعَون إليها حثيثًا، وأيّ نتائج سيجمعون منها؟!

2- **التَّلاعب بأحْكام الشَّريعة الإسلاميَّة وثوابتها**، وذلك من خلال ما يسمَّى بالاستِطلاعات على المواضيع ومناقشتها، وهذا من أخطر صور الانحِراف المعاصر، فيتمّ عرْض موضوع من موْضوعات الشَّريعة الإسلاميَّة كغيرِه من الموضوعات، ليتمَّ الاستِفْتاء والاستطلاع عليه، وجمع آراء مَن يفقه شيئًا مِن الإسلام ومن لا يفقه، ومَن يَعلم ومَن لا يعلم، **ومِن ذلك**:

• مناقشة حدّ الرّدَّة في الإسلام، وهل يتعارض مع الحرّيَّات الدينيَّة أم لا؟ وهل تُوافق برأْيِك - لا بحُكْم الإسلام طبعًا - على تطْبيقه أم لا توافق؟

• تطْبيق الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظِمة الحكم الإسلامي في القوانين، هل تؤيد ذلك أم لا تؤيد؟

• الحجاب الشَّرعي على المرأة المسلمة، هل تؤيده أم لا؟ وهل يشكّل الحجاب عائقًا على المرأة وعملها أم لا؟ شارك برأيك.

• عمل المرأة المسلمة لغير ضرورة - يعني على إطلاقه - هل تؤيِّد ذلك أم لا؟

• الختان للإناث، هل هو ضرَر لها؟ هل تؤيده أم لا؟

• الاختِلاط بين الرّجال والنّساء في الجامعات والمنتديات والتجمُّعات والإعلام والعمل، هل تؤيده أم لا؟

• حظْر المشروبات الكحوليَّة - يعني في الإسلام الخمر وما قام مقامها من المسكرات والمفتّرات والمخدّرات - هل توافق وتؤيد الحظْر؟ هل أنت معه؟ أم مع عدَم الحظر وحرّيَّة الأفراد؟

كلّ هذه القضايا الشَّرعيَّة الكبيرة، تتعرَّض من بعض وسائل الإعلام المسمَّى زورًا إسلاميًّا، أو غير إسلامي، تتعرَّض إلى تلاعب وعبَث من هؤلاء، وهذه جريمة كبيرة، وانْحراف عن الصِّراط المستقيم، لماذا؟

لأنَّ هذه القضايا والأحكام جاءتْ بها الشَّريعة الإسلامية واضحة بيّنة، وما كان فيه خلاف واجتهاد معتبَر بأدلَّته بين أهل العلم فهو واضح وجليّ، فالحجاب جاء في الكتاب والسنَّة، وتحريم الخمور حرَّمه الله في كتابه، وحدُّها ثابت بالسنَّة النبويَّة، وكذلك حدّ الرّدَّة عن الإسلام، ولن أقف هنا مبينًا لها فهذا له مجاله.

وكذلك لأنَّ الإسلام ليس موضوعًا للاستبْيان والاستطلاع - حاشا شريعة الإسلام من ذلك - وليس موضوعًا للنقاش والحوار بين مَن يعلم ومَن لا يعلم، هل تؤيِّد أم لا، هل توافق أم لا؟ كلاَّ، كلا.. إنَّما الإسلام بالأصْل هو مرجع لكلّ نقاش وكلّ خلاف، كما قال تعالى مبينًا ذلك في كتابه: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِّ ذَلِكُمُ اللهُّ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: 10]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهّ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهّ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: 59].

ثمَّ إنَّ هذا تعدٍّ على حكم الله تعالى ورسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُّ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]، وقال تعالى: {﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِّ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 51].

ثمَّ إنَّه طريق إلى الفتنة والخروج عن منهج الله تعالى ورسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - كما قال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُّ الَّذِينَ

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: 63].

فإذا قام الإعلام - وأعني القائمين على أمره - بِجعل هذه القضايا والمحاور والثَّوابت موضوعًا لآراء وعقول النَّاس، فقد وقع في منزلق خطير، وانحراف جارف، يأخذ أصحابه إلى الهاوية، وما أدراك ما هيه، نار حامية!

لأنَّه لا يحلّ لمسلم أن يناقش ويجادل الله في حكمه وشريعته؛ لأنَّ هذا طريق الكفر والضَّلال؛ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36].

وهو أيضًا يتعارض مع صحيح الإيمان بالله ورسوله؛ ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

ثانيًا: صور خطيرة من انحراف المسلمين.

ثمَّ بالوقوف مع أمثِلة هذه النَّوعيَّة الخطيرة من البرامج والموضوعات، وما يتمّ فيها من أخذ عيّنات من الاستِبْيانات والاستطلاعات، وأصوات الجماهير من هنا وهنالك، يظهر لنا عدَّة أمور خطيرة كذلك، **منها**:

1 - ضحالة الثَّقافة الإسلاميَّة عند المسلمين:

لأن المتابع البصير يرى من هؤلاء مَن لا يعلم حكم الله ورسوله، أو حكم الإسلام الصَّحيح في الموضوع الذي يسأل عنه، فكثيرٌ من هؤلاء لا يعلم حكم الإسلام الشَّرعي في الحجاب، وأنَّه فرض عين على كلّ مسلِمة بالغة مكلَّفة، ويُلْزمها بذلك ولِي أمرِها والقائم عليها من أبٍ وأمٍّ وزوج ونحو ذلك.

ومنهم مَن لا يعلم حُكْم الإسلام الشَّرعي في حدّ الرّدَّة على المرتدّ عن الإسلام، وأنَّه القتل، ويقيمه وليُّ الأمر أو مَن ينوب عنه؛ كما جاء الحديث الصَّحيح الثَّابت: ((مَن بدَّل دينَه فاقتلوه)).

ومنهم مَن لا يَعلم حكم شرب الخمور والمسكرات وما شابَهها، وأنَّها من أشدِّ المحرَّمات في شريعة الإسلام، فلا يحلّ لمسلم شربها أو بيعها، أو تقديمها للسَّائحين، وإن جرت بعض المنافع الزَّائلة؛ كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: 219].

كما أنَّ من المسلمين مَن لا يعرف الفرق بين السنَّة والشِّيعة والشّيوعيَّة، ولا الفرق بين الصوفيَّة والأشعريَّة وأهل السنَّة.

2- النَّظر إلى عرَض الدنيا الفاني الزائل:

كما قال تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: 152]، وإن كانت هذه الآية تخاطب الصَّحابة بأنَّ منهم مَن يريد الدنيا ومنهم مَن يريد الآخرة، مع أنَّ قلَّة قليلة منهم أرادت الدنيا إرادة عارضة سرعان ما رجعتْ إلى أصلها من حبّ الآخرة وإيثارها على الدنيا، فما بالكم بِحال المسلمين اليوم وقد أصبح الأصْل فيهم - إلاَّ مَن رحم الله - هو حبّ الدّنيا وإيثارها على الآخرة، فالبون حقًّا شاسع وبعيد!.

فترى من المسلمين الذي حينما يُسأل عن الاتّجار والبيع للخمور والمخدّرات، يقول بأنَّه لا مانع - عنده بالطَّبع - من بيعها والتّجارة فيها خصوصًا للسَّائحين والغرباء؛ لأنَّها - على حدّ تعبيره - تنعش الاقتصاد الدولي للبلد، كما أنَّها تعطي صورة وانطباعًا للغرب بأنَّ بلاد المسلمين فيها أناس منفتِحون على الغير.

وينسى هذا وأمثاله أنَّ التّجارة بالخمر وإن كان فيها بعض الربح والكسب المادي الزَّائل؛ ولكنَّ إثْمها وخطرها وهلاكها أشدّ وأخطر على الفرْد والمجتمع بأسره، من حيث الكسبُ الحرام، وصرف المال في غير حلّه، والطَّريق إلى الوقوع في الفاحشة والزّنا، وتضْييع الأبناء، ومحْق البركة، وجلْب أمراض يصعب الشِّفاء منها بدون شقّ الأنفس أو الموت، وغير ذلك من المفاسد والمهلكات؛ كما قال تعالى في كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90]، وكما جاء في الحديث عند الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((يُوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كلّ أفقٍ كما تداعى الأكلة على قصعتها))، قلنا: يا رسول الله، أمِن قلَّة منَّا يومئذ؟ قال: ((أنتم يومئذ كثيرٌ ولكنَّكم غثاء كغثاء السيلٍ تنزع المهابة من قلوب عدوِّكمٍ ويجعل الوهن))، قالوا: وما الوهن؟ قال: ((حب الدنيا وكراهة الموت)).

وقِسْ على ذلك بيْع الدُّخان وبيع الخنزير وقد حرَّمه الله تعالى في كتابه، ورسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - في سنته.

ويؤسف القلب، ويحزن النَّفس، أنَّهم يقدّمون لهؤلاء القادمين من غير بلاد الإسلام والتَّوحيد، يقدّمون لهم الخمْر والمَعازف والمسكرات، وإن شئت قلت في حياء وخجل: ويقدمون أيضًا صورًا من الدّعارة والزنا والفواحش، ولا حوْل ولا قوَّة إلاَّ بالله.

وكان الواجب عليهم أن يقدِّموا لهم الإسلام وشريعته الغرَّاء، ويقدّموا لهم القرآن الخالد المعجز من عند الله، ويقدِّموا لهم المثل الأعلى للأخلاق الإسلاميَّة والقيم العليا، ويقدِّموا لهم أعظم شخصيَّة عرفها التَّاريخ كلُّه؛ النَّبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - بأخلاقه وآدابه، وشريعته وسنَّته، وصبره وجهاده.

يقدِّموا لهم طوق النَّجاة في الدنيا والآخرة، ويبيِّنوا لهم طريق الهداية والإيمان، ويعرفوهم بالله وأسمائه وصفاته، ودينه ومنهجه؛ لأنَّنا أمة الإجابة وهم أمَّة الدعوة.

كان عليهم أن يقيموا لهؤلاء القادمين من بعيدٍ أو قريبٍ المؤتمرات والنَّدوات الَّتي يعرفون منها طريق الإيمان بالله ورسوله، وطريق السَّعادة في الدَّارين، وينشروا لهم صحيفة أو كتبًا تبين لهم حقيقة هذا الدّين العظيم.

3 - **التقليد الأعمى للغرب وأذنابهم:**

حيث نجد كثيرًا من هؤلاء لا يشغله عبادة الله تعالى، ولا يهمّه أمر دينِه وقيمه وأخلاقه، ولا يعبأ بآخرته وحسابه أمام الله - تعالى - في يوم الحساب الحقّ، إنَّما شغله وهمُّه كلّه في الظهور أمام الغير من المستغْربين والغرب أنَّه انفتاحي العصر، مروني السّلوك، عقلاني النَّظرة، لا يعارض الغير وإن كان كافرًا، ويقلِّده وإن كان ملحدًا أو مشركًا، ولا حوْل ولا قوَّة إلاَّ بالله! وهذا عين ما قالَه النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - في الحديث عن أبي سعيد الخدْري - رضِي الله عنْه - علم من أعلام نبوَّة الرَّسول - صلَّى الله عليه وسلَّم - يبيِّن فيه - صلَّى الله عليه وسلَّم - حال كثيرٍ من هذه الأمَّة في اتِّباعهم سبيل غير المؤمنين، ومشابَهتهم لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، حيث جاء في روايات الحديث: قلنا: يا رسول الله، اليهود والنَّصارى؟ قال: ((فمن؟))، وهذا التَّشبيه في المتابعة: ((شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع))، وفي رواية: ((حذو القذة بالقذة)) كناية عن شدَّة الموافقة لهم في المخالفات والمعاصي لا الكفْر.

والقُذَّة بالضَّمّ هي ريش السَّهم، وهو دالّ على كمال المتابعة، ثمَّ إنَّ هذا اللَّفظ خبر معناه النَّهي عن اتِّباعهم، وعن الالتفات إلى غير الإسلام؛ لأنَّ نوره قد بهر الأنوار، وشرعته نسخت الشَّرائع، وقوله: ((حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه)) مبالغة في

الاتّباع لهم، فإذا اقتصروا في الَّذي ابتدعوه فستقْتصِرون، وإن بسطوا فستبْسطون حتَّى لـو بلغوا إلى غاية لبلغتموها.

4- اتّباع الهوى:

فكثير من هؤلاء أيضًا يقع في جلّ هذا المخالفات الشَّرعيَّة، لاتّباعـه لهـواه فحسـب، ولإرضاء شهواتِه ونزواته ورغباته، فلو تطلَّبت شهوته التخلّي عن دينه لفعـل، ولا حجْـر عليه ولا حـرج، وإذا أراد زوجتَـه سـافرة عاريـة فـلا حـرج ولا عيـب، وإذا أراد شرب المسكرات والمحرَّمات فلا حرج ولا عيب.

وقد لا يفعل ذلك لكنَّه يُفتي به لغيره، من أصحاب السلطان والقرار، لينـال بـذلك عرَضًا من الدّنيا الفانية، ويبيع دينه لهواه ومبتغاه في غير حقّ ولا دين، وقد جـاءت آيـات القرآن تبيِّن وتحذِّر من هذا المسلك المذْموم؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَـوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِـن بَعْـدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23].

ثالثًا: وجوب العودة الصحيحة للكتاب والسنة.

وبعد هذا العَرْض لبعض صور الانحـراف التـي وقفـتُ معهـا مـن خـلال وسـائل الإعلام أقول:

يجب على وسائل الإعلام والقائمين بأمرِها، وعلى كلِّ مسلم ومسلمة، أن يعلم علـم اليقين، أنَّه لا يجوز التعرُّض لأحكام الشَّريعة الإسلاميَّة بغير علم ولا هـدى ولا بصـيرة، ولا يتكلَّم في ذلك إلاَّ أصحاب العلم الرَّاسخ، والفهـم الصـحيح للكتـاب والسـنَّة، كـما يجب اتّباع الكتاب والسنَّة اتباعًا شرعيًّا صـحيحًا، دون انحـراف أو التِـواء عـن الصِّراط المستقيم، ولنعلم أنَّه لن يصلح آخر هذه الأمَّة إلاَّ بما صلح به أوَّلها، كما قال الإمام مالـك،

فلْنُسْرع الخُطا بالعودة إلى القرآن والسنَّة، وإلى الاستجابة لأحكامِها؛ فإنَّ فيهما الخير والهداية لنا إنْ أردْنا ذلك.

إنَّ الكتاب والسنَّة أصلان كبيرانِ لهذا الدّين؛ لأنَّهما ركن من أركان الإيمان، فمَن كفر بالكتاب أو بالسنَّة فقد كفر بالإسلام كلّه، فعلى كلّ مسلم أن يؤمِن بالكتاب والسنَّة، وأن يعظِّمهما ويجلّهما ويخدمهما، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: 32].

كما أنَّه يَجب على كلِّ مسلم الإذعان لله ورسوله، والاعتِقاد بوجوب التِزام الكتاب والسنَّة، ووجوب متابعة النَّبيّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - كما قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

ومن هنا، فإنَّ الواجب على المسلم - رجُلاً كان أو امرأة - أن يعْلم العِلْم اليقينيَّ بوجوب أن يتقيَّد في كلِّ حركةٍ من حركاته، وسكنة من سكناتِه، ونفَس من أنفاسِه - بالكتاب والسنَّة الَّتي جاء بها النَّبي المصطفى - صلَّى الله عليْه وسلَّم.

وقد حضَّت نصوصٌ كثيرة في الكتاب والسنَّة على وجوب الالتِزام بهما، فمن آيات القرآن في ذلك:

1 - قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[النساء: 59].

2 - وقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ ﴾ [الحشر: 7].

3 - وقوله سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: 32].

4- وقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾[المائدة: 15، 16].

5- وقوله تعالى: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]، قال الحسن: "تدبُّر آياته: اتّباعه والعمل بعلمه".

أمَّا عن نصوص السنَّة النبويَّة، فمن ذلك ما يلي:

1- روي البخاري عن ابنِ مسعود - رضِي الله عنْه - قال: ((أحسَن الحديث كتاب اللهأ وأحسن الهدْي هدي محمَّد - صلَّى الله عليه وسلَّم - وشرّ الأمور محدثاتُهاأ وإنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعْجزين)).

2- وروى الترمذي عن المقدام بن معدي كَرب رفعَه: ((ألا هل عسى رجُل يبلغه الحديث عنيأ وهو متَّكئ على أريكتِه فيقول: بيننا وبيْنكم كتاب اللهأ فما وجدْنا فيه حلالاً استحللناهأ وما وجدنا فيه حرامًا حرَّمناهأ وإنَّ ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله)).

ولأبي داود: ((ألا وإنِّي أُوتيت الكتاب ومثلَه معهأ ألا يُوشك رجلٌ شبعان على أريكتِه ...))، الحديث.

3- وفي خطبة النَّبيِّ - صلَّى الله عليْه وسلَّم - في حجَّة الوداع حثَّ على التَّمسُّك بالكتاب والسنَّة حيث قال: ((وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمْتُم به فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا، كتاب الله، وسنة نبيِّه))؛ رواه مالك، وذكر النّصوص في ذلك أمر يطولُ إيرادُه، فلنكتفِ بما أردنا إيضاحَه وبيانه، والله المستعان.

إذًا؛ فالإسلام في البداية والنِّهاية هو التَّسليم للكتاب والسنَّة، والكتاب والسنَّة فيهما بيان كلِّ شيءٍ ممَّا يحتاجه المكلَّف؛ قال تعالى عن القُرآن: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: 89] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: 11]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل: 44].

وذلك أنَّ القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة مشتملان على كلِّ ما يهمُّ النَّاس في معاشهم ومعادهم، عقيدة وعبادة وسلوكًا، على المستوى الفرْدي والجماعي، المحلِّي والعالمي، وذلك في شتَّى المجالات الثَّقافيَّة والاجتماعية والاقتصاديَّة، والسياسيَّة والحربيَّة وغيرها، وقد بيَّنَّا ذلك في كتاب "مجالات الدعوة في القرآن وأصولها" وفصَّلْنا النصوص القرآنيَّة الَّتي تدعو إلى شتى هذه المجالات الإنسانيَّة والعقائديَّة والتشريعيَّة والأخلاقيَّة، فليراجع في مكانه.

إذًا؛ فالقرآن والسنَّة تبيانٌ لكلّ شيء، وهذا التّبيان القرآني قد يكون بالنَّصّ والتَّصريح، وقد يكون بالإشارة والتَّلميح، وهذا الأمر ضمن للقرآن استمراريَّة العطاء للبشريَّة، وصلاحية الدّين الإسلامي لكلِّ زمان ومكان، فليس بعدَه دين يكمله أو ينسخه؛ كما قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3].

خلاصة القول: أنَّ على وسائل الإعلام أن تُساهم في بناء إنسان الإسلام والحضارة القويمة، لا أن تُساهم في هدْم قيم وثوابت هذا الدِّين، عليها دورٌ كبير في بناء العقْل والثَّقافة الإسلامية، لا أن تهدِم القيم والأصول والثوابت، فليتَّق الله أهل الإعلام، وليساهموا في طوق النَّجاة للأمَّة الإسلاميَّة من جديد.

* * *

* الهامش:

---

[1] الأنوار النعمانية: ج2 / 287.

[2] الكافي: ج/ 1239.

[3] مرآة العقول: 253.

[4] الأنوار النعمانية: ج2 / 357.

[5] كشف الأسرار: 114.

[6] أصول الكافي: ج/ 1146.

الثقافة الجنسية بين الشريعة الإسلامية والغرب

هذا موضوع جليل وخطير يحتاج إلى بيان وتوضيح، ولا بد هنا من وقفات أقف فيها لأبين في إجمال ما يخفى على كثير من المسلمين اليوم:

أولاً: شمولية المنهج الإسلامي:

موضوع يثير شجون قلوب الصالحين، ويحيك بنفوس الغيورين، ويؤرق مضاجع المربين والمصلحين، ويوجع قلوب الآباء والأمهات الصالحين، ماذا تعني هذه الكلمات، وماذا وراء هذه المصطلحات (الثقافة الجنسية)، وماذا يريد أصحابها حقاً من هذه الأمة الإسلامية العريقة في سموها، المرتفعة في أدبها، النبيلة في أخلاقها، العزيزة بكتابها ونبيها صلى الله عليه وسلم.

إن الأمة الإسلامية شهدت في هذه الآونة الأخيرة من الزمان ، كما كبيراً وهائلاً من المصطلحات، وزحفاً مهدداً بعظمها وخطرها وشدة تأثيرها على المجتمعات، والمتأمل بنظرة فاحصة، وعين بصيرة بالتاريخ والمذاهب الحديثة، يرى أن دولة الإسلام قامت منذ أربعة عشر قرناً ونصف تقريباً من الزمان.

نعم قامة دولة الإسلام وفق منهج الله تعالى الذي صاغه لها، ووضعه منهاجاً وتشريعاً كاملاً وشاملاً لها، منهج لا يوصف بشيء غير أنه منهج الله ودينه وشريعته كما قال تعالى:" إن الدين عند الله الإسلام"، وهذا المنهج منهج رباني بالدرجة الأولى ، لأنه منهج الله الخالق، ومنهج واضح لا لبس فيه ولا غموض ، لأنه طريق إلى المصير البشري في الدار الآخرة، إما إلى جنة النعيم، وإما إلى دار الجحيم.

ومنهج صالح لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض والكون وما فيه، فليس فيه من قصور أو خلل، أو جهل أو زلل، كلا..إنما هو منهج صالح لجميع الأعصار والأزمان والبلدان.

وهذا المنهج الرباني منهج شامل كامل، فليس فيه تقصير ولا إبهام، ولا عيب ولا نقصان، كلا.. إنما هو منهج شامل لجميع البشرية كلها، شمول عقدي إيماني، وشمول عاطفي وجداني، وشمول تشريعي وأخلاقي.

إنه الشمول الكامل الذي يحكم كل شؤون الحياة البشرية والإنسانية، وهذا الشمول نابع من كون أن الله تعالى هو خالق الإنسان سبحانه:" ولقد خلقنا الإنسان...الآية"، وهو سبحانه أعلم بهذا المخلوق البشري أو غيره، وهو سبحانه أعلم بما يفسده وما يصلحه:"ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"، ومن ثم فقد صاغ الله تعالى في منهجه الشمولية الكاملة التي تظم لهذا الإنسان شؤون حياته كلها، فالإنسان عبد لله تعالى ، مأمور بأمره سبحانه وتعالى، فلا يتحرك حركة في الحياة إلا والله تعالى قد صاغ له منهجاً ربانياً ونبوياً من عنده لينظم له أمره وشأنه.

وهذا يدخل فيه مأكل الإنسان ومشربه، ومنامه وملبسه، وحربه وسلمه، ونومه ويقظته، وقيامه لله وعبادته، وحياته وموته، ورضاه وغضبه، ووجدانه وعاطفته، وفرحه وحزنه، وسروره وغمه، حتى علاقته بربه، وعلاقته بخلقه..وهكذا ، شمول كامل، ومنهج واضح:" قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين".

وهذا الإنسان البشري كما بينا لم يترك لنفسه ولا لهواه ولا لعقله كلا.."أيحسب الإنسان أن يترك سدى"، بل إن الله تعالى هذب غرائزه ، ووضع لها ضوابط وشرائع تصلحها" الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى"، ومن ثم فالشهوات والغرائز المودعة في

الإنسان ما تركها الله هكذا، بل إن الله تعالى بشرعه المنزل في كتابه وعلى لسان رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومن سبقه من الأنبياء والرسل، جعل لهذه الشهوات والغرائز البشرية طريقاً ومتنفساً، وتهذيباً وتربية وإصلاحاً، وتوجيهاً وصيانة وإكراماً،فالطعام والشراب له آداب، والنوم والمشي له آداب، والملبس وغيره له آداب.

ثانياً: العلاقة بين الرجل والمرأة في منهج الإسلام:

وكذلك العلاقة الغريزية بين الرجل والمرأة والالتقاء بها له آداب وآداب، والمتأمل في هذا الأمر، في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله، يرى الكثير والكثير في سورة البقرة وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، وفي سورة النساء كذلك، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة النور، وفي سورة الطلاق وغيرها من سور القرآن، وكذلك كتب السنة والسيرة، كالبخاري ومسلم والمسانيد والسنن، وكتاب زاد المعاد وغيرها، المتأمل في كل ذلك يجد فيها كما الشريعة وسموها، في بيان العلاقة بين الرجال والنساء، وآداب هذه العلاقة الحميمية ، في أوجز لفظ، وأبلغ بيان، وأعف أسلوب، وأليق حوار.

إن الإسلام صاغ للمرأة مع الرجل قواعد جليلة كبرى حفاظاً عليها من عبث العابثين ، وشهوات المغرضين والغاوين **فمما شرع الإسلام** :

أولاً: أمر المرأة المسلمة بالقرار في بيتها .

ثانياً: منع الاختلاط عند الخروج .

ثالثاً: منع الدخول عليهن والاختلاء بهن .

رابعاً : حرم سفرها من غير محرم .

خامساً: أمرها بلبس الحجاب والاحتشام عند الخروج من بيتها وقرارها للحاجة والضرورة والعلم والبيع والشراء ، وحرم عليها التبرج والعري والسفور ، وإظهار الزينة والمفاتن .

سادساً: أمرهن بغض البصر عن الرجال إلا من ضرورة شرعية ، وكذلك أمر الرجال بالعفة وغض البصر عن المحرم من النظر إلى النساء . إلى غير ذلك من قواعد صيانتها والمحافظة عليها من لوث الجاهليات البشرية، والشهوات المحرمة الجامحة في النفوس الدنيئة الضعيفة.

هذا من جانب عام كبير، أما العلاقة الخاصة بين المرأة وزوجها، فلها قواعد أخرى، وآداب وأخلاق بينها الله في كتابه حتى أن الله تعالى عبر عن لقاء الرجل بزوجته، واجتماعهما معاً ، بأعف بيان، وأوجز أسلوب، وأبلغ عبارة كما قال تعالى:" نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم" وقال تعالى:" هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" إنها لغة الحياء ، ولغة الأدب والعفة والطهارة، ولغة الكناية والصيانة.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما جاءته المرأة تسأله عن التطهر، فقال لها تتبعي أثر الدم، فألحت عليه في زيادة البيان، لكنه علم الدنيا الحياء والعفة حتى في الكلام والبيان، فأخذتها زوجته رضي الله عنها تعلمها ذلك.

والخوف على الأولاد والذرية من أن يلحقهم الشيطان بعبث، أو يلحقهم نوع من البحث والاطلاع عما بين الأولاد وبعضهم، أمر رسول الله بالتفريق بين الأولاد في المضاجع إن بلغوا سن العاشرة بقوله صلى الله عليه وسلم:"وفرقوا بينهم في المضاجع"، وهكذا آداب وعفة وصيانة.

والنبي صلى الله عليه وسلم قبل زوجاته وهو صائم لأنه أملك لإربه، وأصون لنفسه وعبادته، ويصرح بحبه لعائشة رضي الله عنها، والنصوص في هذا الباب كثيرة ومشهورة.

المقصود إذاً:

أن الإسلام بمنهجه الشامل الكامل هذب الغرائز، وضبط الشهوات، ولم يقف الإسلام يوماً حائلاً بين الإنسان وشهواته وغرائزه إلا فيما يعود عليه حقاً بالضرر والإفساد، في دينه ودنياه، وفي معاشه ومعاده.

حتى أن الإسلام شرع الصيام، وغض البصر، والاستئذان، وستر الحرمات، ولبس الحجاب، وعدم الاختلاط بين الرجال والنساء، والزواج، والتعدد مع العدل، صيانة وتهذيباً لهذه الشهوة والغريزة.

كما شرع للمرأة أحكاماً خاصة بها في شؤونها كالحيض والنفاس وما شابه ذلك، وكل هذه التشريعات الربانية والنبوية، يحيطها سياج كبير، من الآداب والتعفف، والحفظ والصيانة، والحياء والطهارة، فليس فيها تبذل أو تقبح في لفظ أو عبارة، أو كلمة أو إشارة، ولكنه منهج تربوي رباني، كامل شمولي.

ثالثاً: غفلة المسلمين وانقلاب الغرب:

بهذا المنهج قامت أمة الإسلام ودولته، طيلة هذه القرون ، وتربت عليه الأجيال، وتخرجت في رحابه الأبطال، وقامت حضارة سامية من الآداب والأخلاق، وبناء شامخ من العلم النافع، والتقدم البشري نحو بشرية ربانية صالحة.

قامت بهذا المنهج في حين أن أوربا، ظلت طيلة هذه القرون ترتع في الظلمات والتيه والضلال، وترتع في حمأ مذموم من التخلف والانفصال، لكن من سنن الله الجارية أن من قصر في حمل منهج الله المنزل، وشريعته الكاملة، أن يتأخر عنه النصر، أو يحجب عنه الهدى، أو يغلب من عدوه ويغزى في عقر داره، إنها السنن الربانية التي لا تحابي أحداً من المخلوقات كائناً من كان.

فانقلبت الدائرة بتفريط الأمة الإسلامية في منهج الله، والركون إلى زخارف ومتاع الحياة الدنيا، من الأموال والتجارات والنساء، فقامت دولة الكفر من سباتها ، تلهث وراء التقدم الإسلامي، الذي أبهرها، وتسرق من علومه التي أدهشتها، وتأخذ من فكرها الذي أذهلها.

فتحولت مسيرة القيادة من دولة الإسلام صاحبة الحق والعدل، إلى دولة الكفر:"وتلك الأيام نداولها بين الناس"، فبدأ الغرب كله في العصر الحديث في لمح البصر، يحث الخطى نحو التقدم المادي، وسبب ذلك أنه لما قام من غفلته، وجد أن حملة الدين عندهم لم يقدموا للحياة الإنسانية عندهم شيئاً يذكر، واكتفوا بالوعظ البارد، والبيان الهزيل للدين في المعابد والكنائس، ومن ثم قالوا إن سبب هذا التخلف الطويل يرجع إلى هذا الدين وإلى هؤلاء الأحبار والرهبان سواء بسواء.

فنشأ التمرد على الكنيسة، وعلى أحكامها وشريعتها، فقامت حركات ومذاهب تنادي بنبذ تعاليم الأديان والتمرد عليها لأنها سبب التخلف والرجوع، فقامت المذاهب العلمانية وغيرها بالحرب والانفصال بين الدين والحياة.

ومع تطور النظريات البشرية العلمانية والإلحادية بعيداً عن تعاليم الكنيسة والدين، أصبحت هناك قناعات بل ونظريات تنادي بالحرية المطلقة من كل قيد أو أدب أو تعليم ديني وكنسي.

ثم بدأ الغرب صراعه الطويل مع الإسلام وأهل الإسلام، ومن ثم نشأت الحملات العسكرية والصليبية على العالم الإسلامي ، لتنهب ثرواته ومقدراته وخيراته، وتشفي أحقادها وضغائنها من هذا الدين وأهله.

ولكن مع مرور الزمان والوقت لم يلبث هؤلاء حتى قاموا بإنشاء حرب من نوع جديد، والتي سميت بالغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، لتسميم وتجفيف منابع الإسلام وأخلاقه وآدابه في حياة الإنسان المسلم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

حتى خرجت علينا جملة هائلة من المصطلحات والأفكار والحروب الثقافية والفكرية، والتي تهدد كيان المجتمع الإسلامي، وتخلخل بينته، وتفكك أوصاله، وتقلب أفكاره واتجاهاته، ما بين مصطلحات كالحرية – التي تعني انفلات الإنسان من كل قيود وآداب وأخلاق – ، والتقدم والتطور والتنوير، ومصطلحات وقضايا أخرى للمرأة تعبث بدينها وأخلاقها سائر شؤونها، كحرية المرأة، وسياسة المرأة، وقضايا المرأة، وحقوق المرأة، وظلم المرأة، والقضايا الصحية والجنسية وهكذا دواليك..

وهم بالأصل هذه قضاياهم هم ، ومشاكلهم هم ، لأن المرأة المسلمة ما سمعنا يوماً أن لها عندنا في الإسلام قضية ولا مشكلة، ولكن التقليد الأعمى ، والتبعية العمياء خلف الغرب اليوم، خدعت كثيراً من أمة الإسلام، فصاروا خلف القوم يلهثون، ويحثون الخطى نحو الغرب لعلهم يفلحون، فدخلت علينا قضايا الغرب ومشاكلهم، ودخلت علينا حربهم وغزوهم، ودخل علينا مكرهم وخداعهم:"لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة...حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه".

رابعاً: الثقافة الجنسية غزو ثقافي وفكري وأخلاقي:

ومن أخطر هذه المصطلحات المستغربة، الوافدة إلينا ما يسمى(بالثقافة الجنسية)، وهذا مصطلح ربما شابه كثير من الغموض، والذي نجحوا به كثيراً في إغراء السفهاء، ومن لا علم يعصمه، ولا دين يهديه، أغروه بمثل هذا النوع الخبيث من العبارات والمصطلحات.

إن الإسلام كما أشرت بداية الكلام وتأصيلاً له، ما ترك شيئاً إلا وبينه وهذبه، ولكن هؤلاء يريدون أن ينحرفوا بالبشرية بعيداً بعيداً..عن وحي الله وشريعته، وعن فطرة الإنسان السوية المستقيمة، وأن يتملقوا البشرية التائهة اليوم في حيائها وأخلاقها، وأن يضللوا الأجيال المسلمة المقبلة عن غايتها ورسالتها الربانية الهادية..

وسؤال يتردد كثيراً على قلب المرء..هل نحن بحاجة إلى ثقافة جنسية مزعومة..؟؟

وهل هي من ضرورات إصلاح المجتمع..المعاصر اليوم..؟؟

وهل تلك القرون كانت في غفلة عنها حتى نفهمها نحن في هذا الزمان..؟؟

الجواب: نقول فيه ونأسف بشدة: إنه مكر خبيث لإفساد المجتمع المسلم، نعم، إن المسلمين اليوم في غفلة كبرى:

أولاً: في غفلة عن فهم حقيقة الإسلام وطريقة تطبيقه كما كانت من قبل.

ثانياً: وفي غفلة عن عدوهم وما يكيد لهم من مكر وخبث وعداء ديني وتربوي وأخلاقي وسياسي وعسكري واقتصادي..إلخ.

ثالثاً: وفي غفلة أيضاً عن غايتهم وأهدافهم التي خلقوا من أجلها..بل وفي غفلة عن آخرتهم..

نعم هناك بعض التقصير في فهم هذه القضايا، نعم هناك خلل في بيانها بمنهج الإسلام وآدابه وعفته.

نعم هناك تجهيل للمسلمين عن مكر وخبث، لكن الأمر لا يستدعي أن نأخذ كل ما عند الغرب ، ما دام يتصادم مع منهجنا وعقيدتنا ومصطلحاتنا الإسلامية السامية.

وإني لا زلت متعجباً من يوم أن قرعت أذناي هذه الكلمات الخبيثة -الثقافة الجنسية- ودعني أسميها – ثقافة الانحلال - لأن الحيوانات والأنعام تعرف ذلك جيداً،

يعرف ذكر الحيوانات والبهائم كيف يأتي أنثاه، فكيف بمخلوق كرمه الله تعالى، إنني أعلم أنها لم تنبت في أرض الإسلام، ولم ترتوي من معينه العف الطاهر، ولكنها نبتت في أرض حل بها الانحراف عن الأخلاق والدين والقيم البشرية، وانجرفت بها عواصف الانفلات والتميع والانحلال الأخلاقي والاجتماعي، وإن ألبسوها ثوباً باسم الإسلام ، وأن الأمر مطلوب شرعاً، وجاء في القرآن والسنة، وجاء في الأخلاق والقيم..

نعم جاءت في كتاب الله وسنة رسوله..، لكن..بأسلوب عف،..وأدب جم،..وعبارة مهذبة،..وبلاغة عالية،..وطهارة راقية..لكنها لم تتبذل وتتعرى من أدب الإنسان وفطرته،..ومن حياء الإنسان وعفته..فأين الثرى من الثريا..؟؟؟

آسف قلبي: أن تجد كتباً بأسماء إسلامية تحت هذا العنوان، وآسف قلبي أن تجد مجلات وصحفاً ومواقع متخصصة في هذا الباب، بلا حياء أو أدب أو عفة أو خلق..

حتى قرأت مرة وأنا أقلب في بحثي عن شيء ما،..في أحد المنتديات ..أدب وفن التعري عند الزوج..فقلت وهل في الإسلام مصطلح التعري حتى يكون له نصيب من الأدب..؟؟

إن التعري والعري من مصطلحات قاموس الشيطان وأتباعه وأعوانه، كما أخبرنا الله في كتابه:" يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهّ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ "(الأعراف26)، وقال تعالى:" يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ "(الأعراف27).

فهل نحن في حاجة ماسة حقاً لمثل هذه الثقافة الدخيلة..؟؟، وهل نحن في حاجة أيضاً لأن تصير مادة مستقلة تدرس على شباب وفتيات المسلمين بلا حياء أو خلق أو خجل..؟؟

لئن حدث هذا فهو الإنذار حقاً بعقاب معجل من الله، وهو النذير حقاً بهلاك المجتمع المسلم، وانحرافه نحو الهاوية وما أدراك ما هيه نار حامية..

إن العلاقة بين الرجل والمرأة في الحلال الطيب بينها الله في كتابه وسنة رسوله، لكنها تدخل جملة وتفصيلاً بعيداً عن فتنة القلوب، وإثارة الشهوات والغرائز، في آداب الحياة الزوجية، وفي حق الزوج والزوجة، لأن الحياة ليست مجرد متعة فراش، ولكنها الأخلاق والمودة والرحمة..

إن المخططات التي تتخذ في أوكار الصهيونية والماسونية والصليبية والشيوعية.. كلها تستهدف إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق الخمر والجنس وإطلاق العنان للغرائز والشهوات والجري وراء المظاهر والتقليد الأعمى... والمرأة عند هؤلاء هي أول الأهداف في هذه الدعوة الإباحية والميدان الماكر فهي العنصر الضعيف العاطفي الذي ينساق وراء الدعاية والفتنة بلا روية ولا تفكير وهي ذات الفعالية الكبيرة والتأثير المباشر في إفساد الأخلاق..

يقول كبير من كبراء الماسونية الفجرة: «يجب علينا أن نكسب المرأة فأي يوم مدت إلينا أيديها فزنا بالحرام وتبدد جيش المنتصرين للدين».

ويقول أحد أقطاب المستعمرين: «كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع فأغرقوها في حب المادة والشهوات».

وجاء في «بروتوكولات حكماء صهيون» ما يلي: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا إن «فرويد» منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء

الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه...».

ومن وراء هذه القوى المعادية والتخطيط المدمر.. اليهود فهم الذين آلو على أنفسهم أن يتبنوا كل باطل من الآراء الفكرية في مجال ما وراء الطبيعة وفي مجال الأخلاق وفي مجال تحطيم القيم الدينية غير اليهودية ليفسدوا العالم في عقيدته وفكره وأخلاقه.

وليتمكنوا من وراء ذلك من قيادته واستعباده والسيطرة عليه ولقد أعلن اليهود في –بروتوكولاتهم– أنهم يعملون جاهدين لإفساد الضمائر البشرية عن طريق التشكيك في الأخلاق والعقائد ويعملون جاهدين لإفساد العقول عن طريق تزييف الحق وترويج الباطل ويتبنون شخصيات إبليسية ماكرة خبيثة تدعو إلى هدم العقيدة الدينية تارة وهدم الأخلاق تارة أخرى.

بل وقد وصل الأمر باليهود أن رسموا لإفساد الإنسانية منهجًا أخذوا في تنفيذه عن طريق وسائل الإعلام ودور النشر وعن طريق المسرح والسينما والبرامج الإذاعية والتلفزيونية وعن طريق كل عميل خائن وكاتب مأجور لتتم لهم القيادة الفكرية والنفسية والفلسفية في العالم كله فعلينا أن نعلم أن التخنفس في شبابنا والفجور في نساءنا وانتشار الخمر والعهر والقمار والميوعة في بلادنا.. هو من مخططات اليهود.(تربية الأولاد:عبد الله علوان).

خامساً: واجب الأمة الإسلامية اليوم:

إن الأمر جد خطير، ولكننا مع ذلك كله، لا نلقي بالتبعة على أعدائنا لنخرج منها نحن بيد بيضاء..، كلا..بل إن التبعة الثقيلة علينا اليوم.

– فعلى أهل العلم والدعاة أن يبينوا للناس شريعة الله المنزلة، ومنهج الله في كتابه وسنة رسوله كما أسلفنا، وعليهم أن يأخذوا بأيدي الناس إلى شريعة الإسلام وآدابه

وأخلاقه، وأن يلقنوا شباب المسلمين خصوصاً آداب الإسلام وتعاليم الإسلام في جميع شؤون الحياة.

– كما أن على المؤسسات التربوية والتعليمية في بلاد المسلمين، أن تتجه اتجاهاً جدياً نحو تربية إسلامية طاهرة نظيفة، لا تحتوي على إخلال بالأدب الإسلامي، ولا الخلق النبوي، ولا بالمجتمع المسلم، ولا تنحرف بالشباب المسلم وراء التطلع إلى العورات والحرمات، ولا العبث بالأخلاق والأعراض تحت مسمى – الحرية – الثقافة الجنسية – التقدم – إلى غير ذلك.

– كما أن على ولاة الأمر دور كبير في صيانة الأعراض والحرمات للمسلمين، فلا يفتحوا الأبواب أمام كل دخيل وعميل، وكل مستغرب وغريب، ليقتحم بيوتنا، ويهدم أخلاقنا، ويميع عقيدتنا، ويعبث بمناهجنا في وسائل التعليم والإعلام وغيرها، مما كان له التأثير الأكبر على أجيال المسلمين..

– كما أن على الآباء والأمهات والأسر المسلمة دور كبير في تربية إسلامية أرقى، وبناء ثقافي أوعى، وتعليم نبوي أفضل، فلا تغيب عنهم آداب وأخلاق وواجبات الإسلام التربوية في جميع مراحل أعمار الأولاد والفتيات، ولا تغيب عنهم برامج التربية الصحيحة ، ولا مصطلحات الإسلام العفيفة الطاهرة..، كما لا ينسوا أن يحذروا أولادهم من فتنة التقليد الأعمى للغرب والكفار، والتحذير من خطر الفتن والوقوع في الحرمات..ونسأل الله العصمة من الفتن.

إننا لسنا بحاجة إلى ثقافة – جنسية – لأن عندنا في منهجنا الإسلامي كل ضمانات البناء والتهذيب، ولأن منهجنا منزل من عند الله تعالى ليس فيه نقص ولا خلل ولا قصور، حتى نتعلم من الغرب فنون العلاقة بين الرجل والمرأة بلا ضوابط ولا أخلاق.

ولسنا بحاجة إليها لأن عندنا نحن المسلمين الرصيد الأكبر والكامل من أخلاق النبوة وآدابها في كل شؤون الحياة.

إن الغرب والشرق اليوم يلهثون وراء أدوية وعلاجات تشفيهم مما لحقهم من أدواء وأمراض، حلت بهم يوم أن انساقوا خلف شهوات ونزواتهم يركضون، فهم يعانون من الزهري، والسيلان المنوي، وأشدها فتكاً الإيدز..ويبحثون لها عن شفاء لكن الشفاء في منهج الله وحده..

ولسنا بحاجة إليها.. لكننا بحاجة إلى أن نعود إلى منهج الله الإسلام، لنفهمه فهماً صحيحاً، ونطبقه تطبيقاً صحيحاً، فعندها نعلم يقيناً أن الله تعالى ما شرع لنا إلا طريق سعادتنا وهدايتنا في الدنيا والآخرة.."فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى"..

نعم لسنا بحاجة إلى ثقافات تغزوا أخلاقنا وعقائدنا وآدابنا وشبابنا وفتياتنا...ولكنها السنن..نعم ..إنها السنن.

* * *

عندما يتكلم الكرسي باسم الدين

من سنن الله تعالى الجارية دوام الصراع بين الحق والباطل، وملازمة أهل الباطل صورًا من الكيد والمكر والعنت، لأهل الإيمان والحق، كما قال تعالى: "وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [البقرة: 217].

وهذا ليس بغريب ولا عجيب على أحد، لا قدرًا ولا شرعًا، لكن العجيب حقًا أن يتولى اليوم في تلك الأحداث المتتالية، خاصة بعد وقوع عدد من الثورات على المناصب والكراسي الطامعة في أقوات الشعوب، والناهبة لثرواتها، وقد ثبت هذا الأمر بوضوح جدًا، بعد انكشاف المخفي من أعمالهم، والمكنون من أسرارهم، وإن كانت لا تخفى على عاقل بصير.

العجيب هنا، أن يقف بعض هؤلاء، أمام أناس نحسبهم على خير، ونحسبهم سلكوا الطريق الصحيح إلى الإسلام، وغلب عليهم اسم زمانهم "السلفية" أو "السلفيين"، متابعة منهم لمنهج الإسلام الصحيح، ما وافق ذلك منهج الإسلام أيام السلف الصالح السابقين، الذين هم خير هذه الأمة بشهادة الله تعالى، وشهادة النبي – صلى الله عليه وسلم –، كما قال تعالى: "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة: 100].

وكما جاء في الحديث الصحيح، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته" متفق عليه.

لكن الأعجب من هذا، أن يتولى زمام التصعيد في وجه السلفيين أقوام نظنهم من أهل الخير والعلم والصلاح، أناس لبسوا لنا عباءة الإسلام والعلم، وهذا لا غبار عليه، إنما الغبار بحق، أن يتجاهل هؤلاء العلماء مع حقيقة السلف والسلفية تجاهلًا مقيتًا، إلى حد أن يرموا أتباع هذا المنهج بالسفه والجهل، وتخريب الوطن، والتشدد والتنطع، وكأن هؤلاء ليس لهم عالم، ولا يحملون شهادات زعموا، وكأنهم سقطوا فلتة من كوكب المريخ أو زحل، وكأنهم ليسوا من أهل البلد، وكأنهم، متأخرون رجعيون زعموا، وليت شعري، أي افتراء على الدين وأتباعه بعد هذا؟

وهنا يأتي لنا سياق الحديث النبوي، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء". رواه مسلم.

وهذا الواقع المشاهد فعلًا في القرون المتأخرة، خاصة بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وانبعاث حملات التغريب والتضليل للشعوب المسلمة، باسم الثقافة والفن والأدب، وانسياق الكثير، ممن لم يتعرفوا على حقائق الإسلام الصافية، وهنا يؤكد النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الإسلام بشرائعه ستعود، لكن عودًا غريبًا، عودًا لا يقبله المجتمع وإن كان مسلمًا في الجملة، لأن أهل الحق مهما كثروا، فهم قلة في ميادين وأمم أهل الباطل والضلال.

والذي يؤسفنا حقًا كما ذكرت، أن يساهم بعض العلماء الرسميين من منصب شيخ الأزهر والأوقاف، والمفتي، وغيرهم، شن الحرب على السلفيين، باسم التشدد الكاذب،

وهذا له محل من الحوار، حتى أن بعضهم دفع بالأمريكان إلى الحديث عنهم وبقوة سافرة، حتى لا يتمكنوا من صعود المنابر ثانية، وليت شعري هل هؤلاء قرأوا تاريخ الإسلام العظيم، وهل علموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان لا يمتلك في أول دعوته الشريفة المباركة، منبرًا، ولا شبكة معلومات دولية، و قناة فضائية، ولا إذاعة صوتية، لكن الله نشر دينه كل الآفاق، وعم خيره أرجاء الأرض.

أما علموا شيئًا من ذلك، ليتجاهلوا حقائق الإسلام الصافية النقية، ويحاربوا الساعين لكل خير لبلادهم وأوطانهم.

إننا لا نحزن إطلاقًا من وقوع هذه الإيذاءات لأنها سنة جارية، لكننا نحزن عندما تقع من أناس، يتكلمون باسم الكرسي، وباسم الدين معًا، وهنا تكون الكارثة.

فأين هم من المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية في بلادهم؟ وأين هم من المطالبة بغلق بيوت الدعارة والخمر، وأين هم من المطالبة بغلق البنوك الربوية؟

أيهما أولى بالحرب المزعومة؟ وأيهما أرضى عند الله تعالى ورسوله؟

* * *

أهل الذمة: قراءة بين النصوص الشرعية والواقع

إنَّ الله – تعالى – بيَّن لنا في كتابه، وسُـنَّة رسـوله – صـلَّى الله عليـه وسـلَّم – أحـوالَ الكافرين والمشركين، وكيفية التعامـل معهـم، وأخَـصُّ هـؤلاء الكفَّـار والمشركـين أهـلُ الكتاب مِن اليهود والنصارى.

وهؤلاء كما بيَّن أهلُ العلم ينقسمون إلى أقسام:

أولاً أهل الحَرْب: وهذا حال أكثرهم؛ أهل حرب وعداء للإسلام والمسلمين.

ثانيًا أهل الأمان: وهو الحربي إذا آوى إلى المسلمين في جِوارهم لظـرفٍ مـا، واسـتمع كلامَ الله تعالى، وكذلك الداخلون إلى بلاد المسلمين بعهدِ الأمان "كالتأشـيرة في زماننـا"، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّـى يَسْـمَعَ كَـلَامَ اللهِ ثُـمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6].

ثالثًا أهل الصُّلح والعهد: وهـؤلاء حربيُّـون بالأصـل، إلا أنَّـه إذا جَنحـوا للسـلام والمصالحة وتعاهَدوا عليه، كان لهم ذلك العهدُ والصُّلح، مـا وفـوا بـه والتزمـوه، وإلا رُدَّ إليهم عهدُهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَـلَى سَـوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: 58]، وقال – تعالى –: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: 61].

رابعًا أهل الذِّمة: وهم الذين رضُـوا بـالعيش والاسـتقرار معنـا في بـلاد المسـلمين، ورضوا بالشريعةِ والإسلام حاكِمًا وسيِّدًا، ومِن ثَـمَّ دانـوا لحُكمـه بالذلـة والصَّـغار، ولا يتحقَّق لهم ذلك كما نقَل ابنُ القيم وغيره من أهل العلم في "أحكـام أهـل الذمـة"، إلا أن يَدْفعوا الجزيةَ كاملةً عن يد، ويرضوا بسيادةِ الدولة المسلِمة الحاكمة، ولا يتعرَّضوا لأحـد

من أهل الإسلام بسوءٍ أو إيذاء أو قتْل، أو التطاول ببناء الكنائس والمعابد في بلاد الإسلام، وإلا بطلت ذِمَّتُهم، وهؤلاء قد يُسمَّوْن في زماننا هذا بالمواطنين، وهؤلاء غالبهم اليوم يعيشون في البلادِ الإسلامية[1].

فإذا رضُوا بالذِّمَّة والعيش والإسلام والجزية، فهؤلاء قد بيَّن الله – تعالى – في كتابه في هذه الحال ضوابطَ العلاقة وقواعدها مع غير المسلمين في الجملةمِن أهل الكتاب اليهود والنصارى، فقال – تعالى –: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: 8 – 9].

قال العلاَّمة ابن سعدي – رحمه الله–: "أي: لا ينهاكم الله عن البِرِّ والصِّلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم يَنتصبوا لقِتالكم في الدِّين، والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناحٌ أن تصلوهم، فإنَّ صِلتهم في هذه الحالة لا محذورَ فيها ولا مفسدة، كما قال – تعالى – عن الأبوين المشركَيْن إذا كان ولدهما مسلمًا: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: 15]"[2].

وقال العلاَّمة ابنُ كثير – رحمه الله –: "أي: لا ينهاكم عن الإحسانِ إلى الكَفرة الذين لا يقاتلونكم في الدِّين، كالنساء والضَّعَفة منهم، ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾؛ أي: تُحسِنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾؛ أي: تَعدِلوا ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

قال الإمام أحمد: حدَّثَنا أبو معاوية، حدَّثَنا هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء – هي بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: قَدِمتْ أمي وهي مشرِكة في عهد

قريش إذ عاهدوا، فأتيتُ النبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فقلت: يا رسولَ الله، إنَّ أمي قَدِمتْ وهي راغِبة، أفَأَصِلها؟ قال: ((نَعَمْ، صِلِي أمَّك))؛ أخرجاه"[3].

فالإحسانُ إلى غيرِ المسلمين أمرٌ جائِز شرعًا، وفي حدود ما شرَعه الله ورسولُه، ولا يعني هذا أن نُحبَّهم بقلوبنا ونودهم، كلاَّ! فالإحسان هو عملُ المعروف وبذله، لا حب الكُفر والمودَّة، وهناك فارق بينهما.

كما حرَّم رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – ظلمهم أو التعدي عليهم بالقتل، كما جاء عن صفوانَ بنِ سليم عن عددٍ مِن أصحاب النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((ألاَ مَن ظلَم معاهدًا، أو انتقصَه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طِيب نفس، فأنا حجيجُه يوم القيامة))؛ رواه أبو داود والبيهقي.

بل وشدَّد الوعيد على مَن هتَك حُرمة دمائهم، واعتدَى عليهم بغير حق، فقال – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما رواه البخاري عن عبدِالله بن عمرو – رضي الله عنهما –: ((مَن قتَل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإنَّ رِيحها توجد من مسيرةِ أربعين عامًا)).

كما أنه إذا أجار أحدٌ مِن المسلمين مشركًا في دار الإسلام، يجب معاونتُه على ذلك، ويَحْرُم خَفْرُ ذِمته، فقد جاء في الصحيحين؛ عن أبي مُرَّة مولى أمِّ هانئ بنت أبي طالب: أنَّه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبتُ إلى رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – عام الفتح، فوجدتُه يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالتْ: فسلمتُ عليه، فقال: ((مَن هذه؟))، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: ((مرحبًا بأمِّ هانئ))، فلما فرغ مِن غسله، قام فصلَّى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسولَ الله، زعَم ابنُ أمي، أنه قاتلٌ رجلاً قد أجرتُه، فلان بن هبيرة، فقال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((قدْ أجَرْنَا مَن أجَرْتِ يا أمَّ هانئ))، قالت أم هانئ: وذاك ضُحًى.

وأخرج البخاريُّ مِن طريق عمرو بن ميمون: أنَّ عمر – رضي الله عنه – قال – في وصيته للخليفةِ الذي بعدَه –: وأوصيه بذِمَّة الله وذمة رسولِه أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يُقاتل مِن ورائهم، ولا يُكلَّفوا إلا طاقتهم.

ويقول القرافي: "إنَّ عَقْدَ الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم؛ لأنَّهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذِمَّةِ الله تعالى، وذِمَّةِ رسوله، ودِينِ الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمةِ سوء، أو غِيبة في عِرْض أحدِهم، أو نوع من أنواع الأذيَّة، أو أعان على ذلك، فقد ضيَّعَ ذِمَّة الله تعالى وذِمَّة رسوله، وذِمَّة دِين الإسلام"[4].

وهذا ينطبق على المعاهدين والذميِّين منهم.

أمَّا مَن أظهروا العداوةَ والبغضاء، وسلُّوا سيوفَ الحرْب والفتن، فقد بيَّن الله ذلك في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: 9]، فهؤلاء لا بِرَّ لهم ولا صِلة، وهذه قاعدة شرعيَّة واضحة في باب الولاء والبراء بين المسلمين وغيرهم مِن الكفَّار والمشركين.

وبعد هذا نقول:

إنَّ هذه الأحكام الشرعية وغيرها مع أهلِ الكتاب مِن اليهود والنصارى، تكون واضحةً جلية إذا كان سلطانُ وحُكم الإسلام قاهرًا، وخلافته قائِمة، وإمام الأمَّة المسلمة سائدًا بحُكم الإسلام وشريعتِه وأحكامِه، فعندها يُعطَى لهم حقوقهم، ونرضَى منهم ما عليهم.

ولكن ربَّما نجد اليومَ في هذه الآونة الأخيرة، وبعدَ أن دارتِ الدائرة على المسلمين، وسقطتِ الخلافة الإسلامية الراشِدة كنِظام حُكم عام للدول الإسلاميَّة، وبعد التآمُر على إسقاطها، نجد أنَّ بعض أهل العلم يرون أنَّ عقد الذمة لهم لا يَزال قائمًا عملاً بالأصل،

وأنَّ دول الإسلام وإن سقطتْ خلافتها فإنَّها لا تزال تُعبِّر عن الإسلام، ولا يـزال النـاس يعيش بعضُهم مع بعض، إلا إذا فَعَل أهل الذِّمـة مـا يـنقض ذلـك كـرفْضِ دفْـع الجزيـة والالتزام بأحكامِ الإسلام، وإيذاء أهلِ الإسلام وشعائره بأذى، فهذا تسقط ذِمَّته إذا أتَـى بناقضٍ لها، ويُرفَع أمرُه إلى الحاكِم المسلم، فإنْ شاء قتَلَه وإنْ شاء أسَرَه كالكافر الحربي، أو يعفو عنه، أو يسرِّحه بمال في مصالح المسلمين.

بينما يرى بعضٌ آخَرُ من أهل العلم أنَّ عقد الذِّمة بين المسلمين وغيرهم قد لا يكـون قائمًا بالأصل؛ وذلك لانتفاء وجود الحُكم الإسلامي والخلافة والإمام القائِم بـذلك، ثـم لأنَّ التشريعات المدنية الحديثة وإنْ كانت تتمسَّـح ظـاهرًا بالإسـلام إلا أنَّ جُلَّهـا أصـبح علمانيًّا وغربيًّا لا يمتُّ إلى القوانين الإسلامية وشريعتها بصِلة، وقد أسقطتِ الجزيـة عـن أهل الذِّمَّة، كما سقطتِ الشريعة نفسها كنظام عام للحُكم الإسلامي في البلاد الإسـلاميَّة في جُلِّ أحكامها في الدولة المدنية المعاصِرة.

كما نرى تمرُّد بعض طوائف مِن النصارى على أحكام أهل الذِّمَّة ورفضها، والتعرُّض في بعض الأحيان لإيذاء المسلمين بصور شتَّى، وأحوال مختلفة، وهذا واقِعٌ ومشاهَد، وقد قال ابنُ قدامة الحنبلي – رحمه الله –: "ولا يجوز عقدُ الذمة المؤبَّدة إلا بشرطـين: أحـدهما: أن يلتزموا إعطاءَ الجزية في كلِّ حول، والثاني: التزام أحكام الإسلام، وهو قَبول ما يُحكَـم به عليهم من أداء حقٍّ أو ترْك محرَّم؛ لقول الله – تعالى –: ﴿ حَتَّـى يُعْطُـوا الْجِزْيَـةَ عَـنْ يَـدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: 29]"[5].

وقد جاءَ في هذا الشروط العمرية:

"وألاَّ نضرب ناقوسًا إلا ضربًا خفيفًا في جوفِ كنائسنا، ولا نظهر عليها صـليبًا، ولا نرفع أصواتَنا في الصلاة ولا القراءة في الصلاة فيما يحضرُه المسلمون، وألاَّ نُخرج باعوثًا أو

شعانين، ولا نُحدِث في مدينتنا كنيسةً ولا فيما حولها ديرًا ولا قلاية ولا صومعةَ راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا... إلخ"[6].

وقال الإمامُ الشوكانيُّ - رحمه الله - في "السيل الجرار":

"أقول: ثُبوت الذِّمَّة لهم مشروطٌ بتسليم الجزية، والتزام ما ألزمهم به المسلمون مِن الشروط، فإذا لم يحصُلِ الوفاءُ بما شرط عليهم عادوا إلى ما كانوا عليه من إباحةِ الدماء والأموال، وهذا معلومٌ ليس فيه خلاف، وفي آخر العهد العمري: فإنْ خالفوا شيئًا مما شَرَطوه فلا ذِمَّة لهم، وقد حلَّ للمسلمين منهم ما يحل مِن أهل العِناد والشِّقاق"[7]؛ انتهى.

وأيًّا كان الأمر، فهناك أحكامٌ وأصول شرعيَّة في كلتا الحالتين تضبط الأمورَ والمسائل، وليستْ متروكةً للبحث والاجتهاد مِن آحاد الناس وعوامهم، وإلا عمَّتِ الفوضى بلادَ الإسلام، وأتت بالفِتنة التي لا تترك الأخضر ولا اليابس.

وهنا نرى أنَّ الإشكال في الحقيقة في تنزيل هذه الأحكام على الواقِع، وتنزيل ما يتعلَّق بها من مسائل وفروع، حيث نجد البعضَ ربما يجتهد برأيه ويُعوِّل على قراءته للنصوص الشرعية وفهمه، ولا يرجع أو يعول فيها كثيرًا على أهل العِلم والبصيرة والنظر، كما لا يهتمُّ كثيرًا بفِقه المقاصد الشرعيَّة ومآلات الأمور وعواقبها، وكم نحن في حاجةٍ إلى مِثل هذا الفِقه وتأصيله في مِثل هذه القضايا والنوازل المعاصِرة! أو تنزيل الأحكام الشرعيَّة في الواقع بفَهْم عميق، وتطبيق صحيح.

كما أنَّه لا يصحُّ أيضًا الاشتغال بفِقه الواقِع دونما تأصيل مِن العلم الشرعي، والنهل مِن معينه، فلَكَمِ انشغل أناس في فقه الواقع وغَرِقوا فيه دونما تأصيل للمسائل أو تأسيس لها، وكما قال الشيخُ صالح الفوزان - حفظه الله تعالى -: "وأمَّا الاشتغال بواقِع العصر - كما يقولون - أو "فقه الواقع"، فهذا إنَّما يكون بعدَ الفِقه الشرعيِّ؛ إذ الإنسان بالفِقه

الشرعيِّ ينظر إلى واقِع النـاس، ومـا يـدور في العـالَم، ومـا يـأتي مِـن أفكـار، ومِـن آراء، ويعرضها على العِلم الشرعيِّ الصَّحيح؛ ليميزَ خيرها من شرِّها، وبدون العلـم الشرعـيِّ، فإنه لا يُميِّزُ بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال، فالذي يشتغل بـادئَ ذِي بـدءٍ بـالأمور الثقافية، والأمور الصَّحافيَّة، والأمور السياسيَّة، وليس عندَه بصيرة من دِينه؛ فإنَّـه يَضِـلُّ بهذه الأمور؛ لأنَّ أكثر ما يدور فيها ضلالة، ودعاية للباطل، وزُخرُفٌ من القول وغـرور، نسأل الله العافيةَ والسَّلامة"[8].

وقال ابن القيِّم: "ولا يَتمكَّن المفتي ولا الحاكمُ مِن الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين مِن الفهم:

أحدهما: فَهْم الواقِع والفِقه فيه، واستنباط عِلم حقيقة ما وقَـع بـالقرائن والأمـارات والعلامات حتى يحيطَ به علمًا.

النوع الثاني: فَهْم الواجِب في الواقع، وهو فَهْم حُكم الله الذي حَكَـم بـه في كتابـه أو على لسانِ رسولِه في هذا الواقع، ثم يُطبِّق أحدهما على الآخر، فمَن بذل جهـده واسـتفرغ وسعَه في ذلك لم يَعْدم أجْرَين أو أجرًا، فالعالِم مَن يتوصل بمعرفة الواقـع والتفقُّـه فيـه إلى معرفة حُكم الله ورسوله"[9].

وقال أيضًا: "فها هنا نوعانِ مِن الفقه لا بدَّ للحاكم منهما، فِقـه في أحكـام الحـوادث الكلية، وفِقه في نفس الواقـع وأحـوال النـاس، يميِّـز بـين الصـادق والكـاذب، والمُحـقِّ والمبطِل، ثم يطابق بين هذا وهذا، فيُعطي الواقع حُكمَه من الواجب، ولا يجعل الواجـب مخالفًا للواقِع"[10].

وهنا ينبغي التنبيه على عدة أمور:

أولاً: لا يَنبغي لأيِّ أحد أن يقول برأيه في مِثل هذه القضايا والنوازل الكبيرة اليـوم، إلا إنْ كان من أهل العلم الموثوق بعلمهم وتحرِّيهم للحقِّ والشَّرع دون محاباة أو مداهنـة،

ولا يلتفت إلى أيِّ فتوى أو قول ليس عليه دليل صحيح بيِّن مِن الكتاب والسُّنة وأقوال أهل العلم، وإلا صارتِ المسائل فوضى لا زِمامَ لها ولا خطام.

ثانيًا: أنه إذا صحَّ القول بأنَّ أهل الذِّمَّة اليوم لا ينطبق عليهم هذا الوصف والحال؛ لكونهم لا يعطون الجزية ولا يَرْضَون كثيرًا بأحكام الشريعة الإسلامية، فلا يعني هذا أيضًا التعدِّي عليهم بغير وجه حقٍّ أو التعرض لهم بالقتل والإيذاء، حيث إنَّ جُلَّهم عاشوا على أرض مصر مع المسلمين وفي ظلِّ الإسلام منذ 1400 عام من تاريخ الإسلام والمسلمين في أمنٍ وسلام وأمان، وقد أمَرَنا الله – تعالى – بالوفاء بالعهد والذِّمَّة، وجعلها مِن أعلى صفات أهل الإيمان، فقال – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: 1].

وقال – تعالى –: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا ﴾ [الإسراء: 34].

وقال – تعالى –: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: 91].

وقد سُئِل الشيخ العثيمين – رحمه الله –: البعض يتأوَّل في مسألة أهل الذمة بدعوى عدم وجودِ وليِّ الأمر العام أو الخِلافة؟

فأجاب بقوله: "أنا أُوافق على أنه ليس عندنا أهل ذِمَّة؛ لأنَّ أهل الذمة هم الذين يخضعون لأحكامِ الإسلام، ويُؤدُّون الجزية، وهذا مفقودٌ منذ زمن طويل، لكن لدينا معاهَدون، ومستأمنون، ومعاهدون معاهدة عامَّة، ومعاهدة خاصَّة، فمن قدم إلى بلادنا من الكفَّار لعملٍ أو تجارة وسُمِح له بذلك، فهو: إما معاهد أو مستأمن، فلا يجوز الاعتداء عليه، وقد ثبَتَ عن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنه قال: ((مَن قتَل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة))، فنحن مسلمون مستسلِمون لأمر الله – عزَّ وجلَّ – محترِمون لما اقتضى الإسلام احترامه مِن أهل العهد والأمان، فمن أخلَّ بذلك، فقد أساء للإسلام، وأظْهَره

للناس بمظهرِ الإرهاب والغَدْر والخِيانة، ومَن التزم أحكامَ الإسلام واحترم العهود والمواثيق، فهذا هو الذي يُرجَى خيره وفلاحه"[11].

ثالثًا: أنَّ وجود الحال بهذه الصِّفة والصورة - إذا تعرَّض أحدٌ منهم للمسلمين بالإيذاء والقهْر والعَنَت والفِتنة في دِينه، كما يحدُث اليوم من اختطاف للمسلمات وقهرهنَّ في سجون الكنيسة - وجود هذه الحال من بعض طوائف النصارى وقادتهم لا يَعْني بالجملة أن تتحوَّل الأمور والقضايا إلى فوضى عارِمة، بحيث نرى بعضَ المسلمين يحاول جاهدًا التعرُّض لهم بالمِثل، وربَّما صارتِ الأمور إلى ما هو أعظم مِن سفك الدماء والحرْق، وغير ذلك، نقول هذا ليس لعامَّة الناس.

إنَّما إذا وقَع هذا، وجب على الدولة المسلمة ووليِّ الأمر فيها مِن الإمام المسلم أو النائب عنه، اتِّخاذ الواجب عليه ضدَّ هؤلاء المحاربين المفسدين والمخربين في الأرْض، والعمل على تخليصِ المسلمات مِن فِتنة الدِّين والكفر بكلِّ الوسائل والسبل؛ وهذا حتى لا تكون الأمور فوضى، فيعم البلاء والويل على البلاد والعباد.

وقد نصَّ أهلُ العِلم على أنَّ إقامة الحدود في الأموال والدماء إنَّما مرجعه للإمام المسلِم ومَن ينوب عنه، وليس لآحاد الناس، وإلا صارتْ دماء الناس هدرًا، وضاع الأمن والأمان.

رابعًا: ثم على أهل العِلم أن يُبيِّنوا للناس هذه الأحكامَ والنوازل في قضايا الواقع، فإذا ثبت وجودُ بعض المحاربين من النصارى بالفعل، وقيامهم بالتخريب في البلاد أو الإفساد فيها، أو فِتنة الناس عن دِينهم، فهذا حُكمه لأهل العِلم والإمام، وليس للعامَّة من الناس؛ إذ قد يترتَّب على قتال هؤلاء فِتنة أشد وأكبر مِن إفسادهم، أو يحدث إفساد أكبر ممَّا هو حاصل للمسلمين، أو قد لا يكون للدولة سلطانٌ قاهر عليهم، فعندئذٍ يُنظر في مآلات الأمور، وما يترتب عليها مِن المصالح والمفاسد للمسلمين، وهذا ليس إلا

لأهل العِلم والشَّرْع والنظر، وهذا البحث محل نظر واجتهاد، لا يمكن الكلام فيه دون الاستيفاء للموضوع بحقِّه.

وبعد هذا نقول:

فالواجب على كلِّ مسلِم يرجو الله – تعالى – والدارَ الآخرة الحذرُ مِن الوقوع في مهاوي الفِتن، ما ظهر منها وما بطن، وألاَّ يكون مظنة للريب والشك، وألا يُعرِّض الأمة الإسلامية – ما استطاع إلى ذلك سبيلاً – إلى فِتن ومِحن لا يعلم عواقبَها إلا الله تعالى، فقدِ اشتدَّ البلاء اليوم والخَطْب بالأمَّة الإسلامية، وأحاط بها الأعداء مِن كلِّ جانب، وسلُّوا عليها سيوفًا من القهر والظلم والاستبداد، لكن المسلِم يعلم يقينًا أنه على الحقِّ، وأنه منصورٌ مِن عند الله.

وإنَّما يتحقَّق ذلك بالبصيرة في الدِّين والعلم، والثبات على الحقِّ، والصبر على أذى الكافرين، كما يتحقَّق بملازمة جماعةِ المسلمين والسواد الأعظم منهم، وهم مَن كانوا على أصلِ الكتاب والسُّنة وعمل السلف الصالِح من الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – ولا يتعلَّق قلبه أو نفسه ببِدعة أو شُبهة لا عمادَ لها، وليحذر المسلِم في هذا الزمان من الخوض في أبواب الشرِّ والفِتنة، وما أكثرَها اليوم! ولا يكن طريقًا لنشرها، بل الواجب كما ذكَرْنا أن يتوقَّفَ عنها، ويرجعَ بالبصيرة إلى الصادقين والموفَّقين من أهل العِلم؛ ليرشدوه ويعلموه بالحقِّ والصواب، والله أعلم.

* * *

* الهامش:

---

[1] انظر كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن القيم؛ فقد فصَّل فيه وأجاد في بيان ما يتعلَّق بهم مِن أحكام وقواعد.

[2] تيسير الكريم الرحمن؛ لابن سعدي (ص: 856).

[3] تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير: (8/ 90)، ط. طيبة للنشر والتوزيع.

[4] أنوار البروق؛ للإمام القرافي (3/ 14).

[5] الشرح الكبير؛ لابن قدامة (10/ 587).

[6] أحكام أهل الذِّمة؛ لابن القيم.

[7] السيل الجرَّار؛ للشوكاني (1/ 975)، دار ابن حزم.

[8] المنتقى من فتاوى الشيخ الفوزان (1/ 278).

[9] إعلام الموقعين لابن القيم (1/ 78).

[10] الطرق الحكمية (ص: 4).

[11] مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (25/ 493)، دار الوطن.

بيان بشأن المسلمات الأسيرات في أطواق الكنائس

إن قضية خطف وقهر الذين أسلموا سواء من الرجال أو النساء، إنما هي قضية شائكة وكبيرة، ذلك أن المرء إذا استيقن بمعرفة دين الإسلام الحق، وعرف الطريق إلى الإيمان بالله ورسوله محمد – صلى الله عليه وسلم –، فلا يحل لأحد منعه ولا رده عن ذلك، لأن هذا هو الدين الحق المنزل من فوق سبع سموات وهو دين الله تعالى الذي ارتضاه لجميع الأنبياء والرسل والعالمين من الثقلين الإنس والجن.

وليس هذا ردة عن دينه الذي كان عليه، إنما هو ترك للباطل والكفر والضلال، إلى الإسلام والإيمان والتوحيد، بخلاف من كان مسلمًا ثم ارتد عن الإسلام فهذا هو عين الكفر بحق.

وإن من الواجب في عصرنا وفي كل عصر ومصر أن تقوم الدولة المسلمة القائمة بالشريعة الإسلامية بحماية وتعليم المسلمين الجدد، وتبصيرهم بدين الإسلام أكثر وأكثر ليفقهوا ويتعلموا ما يجب عليهم وما لا يجب، وما يحل وما يحرم وهكذا.

إلا أن الأمة في هذا الزمان قد ابتليت بأناس لا يحكمون شريعة الله تعالى وإن أظهروا لنا الإسلام، ولا يريدون الحكم بها، ولا يسعون إلى ذلك فيما يظهر من أحوالهم وما يأتون به من قوانين تخالف في أكثرها مقاصد الشريعة الإسلامية، حتى أنهم أذعنوا وخنعوا لقوانين الغرب الكافر التي تملى عليهم يومًا بعد يوم، وحق فيهم قول النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتم أذناب البقَر، ورَضِيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد، سَلَّط الله عليكم ذُلاً لا يَنْزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم)) [رواه أحمد وأبو داود]،

وقوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((يوشك الأمم أن تدَاعى عليكم، كما تداعى الأَكَلة إلى قصعتها))، فقال قائلٌ: ومِن قلَّة نحن يومئذ؟ قال: ((بل أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكنَّكم غثاءٌ كغثاء السَّيل، ولينْزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن))، فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: ((حبُّ الدنيا وكراهية الموت)) [رواه أحمد وأبو داود].

ومن أسوأ مظاهر الانحراف عن الشريعة الإسلامية أنهم لا يقدمون الحماية والحفاظ على الذين هدوا إلى اعتناق دين الإسلام، وهذا ولا ريب خيانة لله ورسوله والمسلمين، وتضييع للأمانة، وتسليم للمؤمنين لأهل الكفر والشرك، وقد حرم الله ورسوله ذلك لأن الإسلام صار هو صاحب القول وصاحب الدولة فلا يحق امتهان المسلم بعد إسلامه ولا خذله ولا إهانته، بل الواجب في ذلك نصرته وحمايته من الإيذاء والتعذيب والقتل، والوقوف معه حتى يتمكن من إظهار دينه وشريعته التي ارتضاها من الإسلام.

وما يحدث اليوم في جل كنائس العالم عامة ومصر خاصة إنما هو ظلم بين واضح، واعتداء فاضح، وخزي مهين، حينما لا تقوم الدولة المسلمة بحماية أبنائها ورعاياها ومسلميها.

وليعظموا عملًا قول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((المسلم أخو المسلم، لا يَظلمه ولا يُسْلِمه – وفي رواية: ولا يخذله – ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربةً فرَّج الله عنه كربةً من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة)) [رواه البخاري ومسلم].

وليعظموا عملًا قول الله تعالى: فقد قال الله – تعالى –: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: 10].

وبكل حال فلا يرضى هذا الظلم مسلم صادق، ولا مؤمن مخلص لدينه وإخوانه وأخواته المسلمات.

فالواجب نصرة هؤلاء قدر الاستطاعة وحمايتهم والدفاع عنهم، وهنا عدة أمور مهمة:

الأول: أن الدفاع عن إخواننا وأخواتنا المسلمات لا بد أن يكون من منطلق شرعي صحيح، فلا ندافع عنهم من أجل ما يسمى بالوحدة الوطنية، أو حفاظًا على الأمن القومي لمصر، والخوف مما يسمى بالفتنة الطائفية، وكذلك ما يسمى بحرية المعتقد، إنما الدفاع عنهم من أجل رحم وأخوة العقيدة الإسلامية ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾.

الثاني: أن يكون ردنا ودفاعنا وحميتنا موافقة للشرع من الكتاب والسنة، فلا تهور ولا تخريب ولا فتنة، إنما دفاع بالوسائل الصحيحة الشرعية، لأن الغاية والهدف الدفاع عن الحق وأهله وليس مجرد الدفاع والعصبية.

الثالث: أن من وسائل الدفاع المهمة أن يقوم الحكام المسلمون بنصرة هذه القضية بحزم وقوة مما دل عليه الشرع من كتاب الله وسنة رسوله، وإلا تحملوا أوزار هؤلاء الأسرى المسلمين لأنهم في بلادهم وتحت حكمهم وسلطانهم، وإذا لم يفعلوا ذلك فقد خانوا أمانة الله ورسوله.

الرابع: أن على العلماء والدعاة خاصة في المؤسسات الدينية ذات السلطان والكلمة كالأزهر والجميعات الشرعية وغيرهما أن يقوموا بواجبهم تجاه هؤلاء المسلمات فيرفعوا الأمر إلى ولي الأمر والحاكم ويقدموا المذكرات والبيانات الشرعية المنصوص عليها، في حرمة تضييع هؤلاء وتركهم للعودة إلى الكفر والردة بعد الإسلام.

الخامس: على المحاكم الرسمية في الدولة والعاملين فيها من القضاة والمحامين والمستشارين، الوقوف وقفة حازمة أمام هذه القضية واستصدار القوانين المناسبة من

الشريعة في الدفاع عنهم وحمايتهم وتوفير الأمن لهم وتجريم وردع المعتدين من أرباب الكنائس اللاهوتيه العالمية.

السادس: أما بقية المسلمين فعليهم واجب الدفاع وتعميم القضية بما يوافق الشرع، فلا يسعون إلى إحداث فتنة هنا أو هناك، أو مظاهرات تخريبية لا طائل من ورائها إلا زيادة المكابرة والمعاندة، وليتنبه الشباب المسلم لذلك، حتى لا يقعوا في حماس لا طائل منه، أو تخريب لا خير من ورائه.

السابع: إحياء قضية الولاء والبراء في القلوب من جديد ليميز الله أهل الإيمان الصادق من غيرهم كما قال تعالى: قال الله – تعالى –: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: 4].

الثامن: الدعاء لهؤلاء المسلمين بأن يفرج الله كربهم ويكشف غمتهم، ويجعل لهم سلطانًا نصيرًا، وفتحًا قريبًا، فإن الدعاء سلاح المؤمن، وعدة العابد، وجنة المجاهد.

التاسع: الصبر على هذه الابتلاء الشديد سواء من الحكام المتقاعصين، أو الكنائس الظالمة، لأن الله تعالى جعل الابتلاء طريق للتربية والتصفية للصف المسلم ، وفي ذلك حكمة أيما حكمة وقد قال تعالى: الله – تعالى –: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: 2 – 3].فالواجب الصبر ثم الصبر حتى يأتي وعد الله ونصره للمؤمنين.

العاشر: العدل والإنصاف مع غير المسلمين، فلئن ظلم فريق من أهل الكتاب إخواننا وأخواتنا، فلا يجعلنا هذا الأمر أن نتعدى شريعة الله ورسوله فيمن لا يد له ولا سلطان أو أن نظلمهم أو نبخس حقوقهم كلا بل الواجب العدل مع غير الظالمين والبر بهم ودعوتهم للخير والإسلام إذا تيسر ذلك. وقد قال تعالى في كتابه: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8].

والله تعالى أعلم.

* * *

تربية الأولاد مسؤولية الأسرة المسلمة

لو تأمل المسلم قليلًا من الوقت في حال الأجيال الناشئة في مجتمعنا، لرأى كثيرًا من صور الانحراف في أخلاق وعقول كثير من شبابنا وأبنائنا؛ إلا ما رحم الله، ذلك أن هذه الأجيال فقدت كثيرًا من عوامل التربية الإسلامية الرشيدة، والموجهة لسلوكهم وأخلاقهم وعقولهم.

مدارس التربية والتناقض الواضح:

فالواقع أن عوامل ومدارس التربية كثيرة، فالبيت أساس التربية، والمدرسة والجامعة لها دور آخر كبير الأثر، والمساجد لها دور عقدي إيماني واضح، لكن الإشكال؛ أن هذه المدارس الثلاثة الكبرى للتربية كانت محورًا أساسًا في هذا الباب إلى عهد قريب منا، لكننا اليوم أصبحنا نرى خلطًا وتشويشًا في توجهات الأجيال المسلمة الناشئة، وذلك لوجود عدد من الوسائل الأخرى والتي تشارك وبقوة وتأثير في مهمة التربية، ومن أهمها وسائل الإعلام؛ المرئي، والمسموع، والمقروء، على حد سواء، والتي بدورها تساهم في تشكيل العقل والفكر والسلوك، كما تشاركهم طريقة مطعمهم وملبسهم، حتى تسريحة شعرهم، ولون حذائهم.

ولقد أصبح لهذه الوسائل جاذبية كبيرة في استقطاب نظر الناشئة، وطبقات الشباب والفتيات، والواقع الذي لا محيد منه؛ أن جل القائمين عليها، إلا من رحم الله، لا يرقبون في شباب الأمة إلا ولا ذمة، ولا يحملون الأمانة بصدق وحكمة، فأفسدوا كثيرًا بما يقدمون للأجيال من البرامج الغنائية الساقطة، والثقافية التافهة، والمسرحية والدرامية الهزيلة، إلى جانب ذلك الركام من الأفلام والمسلسلات، والتي تجمع في أهدافها هدم

القيم والأخلاق الثابتة من شعائر الإسلام وشرائعه، وتميع الهوية المسلمة في قلوب أبنائنا، وتذويبهم في المد الغربي والعلماني الجارف، بعيدًا عن وحي الله تعالى ومنهجه، وتحثهم على قتل قيم الحياء والأدب في نفوسهم، كما تحثهم على الوقوع في الفواحش والرذيلة والمعاصي والمنكرات، كما تغريهم وتعلمهم وسائل الانحراف وتناول المسكرات والمخدرات، فضلًا عن الانحراف العقدي والفكري.

كما لا ننسى دور المجلات والدوريات التي تأخذ حيزًا كبيرًا من أوقات الشباب والفتيات، في مطالعة قصص الحب والغرام والهيام، وأخبار اللاعبين والفنانين والمطربين، الذين سرقوا أوقات وعقول هذه الأمة، كما سرقوا أموالها وثرواتها تحت مسمى رسالة الفن والإبداع.

كما لا ننسى أيضًا بعض التوجهات المشبوهة في التعليم الحكومي والجامعي، تلك التي تطمس نور الإيمان والعقيدة في قلوب الأجيال، وتزور بعضًا من حقائق التاريخ الإسلامي والإنساني، وتنادي بتمجيد الفن والموسيقى، ورفعة النحت والتماثيل، وحمل العود والبيانوا والمعازف، ولا تهتم كثيرًا بغرس القيم والدين والأخلاق، ولا تهتم كثيرًا بتعليم سير الصحابة والعلماء والفاتحين، ولا تعبأ بأن تكون حصة التربية الإسلامية حصة أو حصتين على مدارس الأسبوع كله.

إلى جانب آخر من السيطرة والإحكام والتحجيم المتعمد على دور المسجد في حياة الشباب المسلم، وإبعادهم بشتى الوسائل والطرق عن العلماء والصالحين هنا وهنالك، والتضييق عليهم، وقتل فرص التربية الإسلامية الصحيحة في بيوت الله تعالى، وتحت رعاية أهل العلم الصادقين.

الأسرة المسلمة هى المسؤول الأول عن التربية:

كل هذه الوسائل وغيرها تشارك في قضية تربية الأجيال والشباب، شئنا هذا أم أبينا، لكن الحق، وكل الحق، أن الأسرة المسلمة، والبيت المسلم، هو القاعدة الأساس، والعمود الأوحد في هذه القضية كلها، مهما تعددت مدارس التربية، لماذا؟

لأن هذه الوسائل مهما كثر خطرها، وامتد ضررها فبالإمكان تضييق الخناق عليها، ورد الباطل منها، وإضعاف تأثيرها، كما بالإمكان إبعادها من حياتنا والاستغناء عنها إلى فترة تربوية صحيحة، تغرس فيها القيم، وتعلم فيها أصول الإسلام وعقائده.

ثم الأهم من ذلك كله؛ أن الله تعالى في كتابه، وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –، بين لنا أن الأسرة هي أصل التربية للأجيال وعمودها، فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" [التحريم: 6].

قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله تعالى – في تفسيره هذه الآية: "أي: يا من منّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه. فـ "قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا" موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالا ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل "والأولاد"، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه"[1].

وقال العلامة الشوكاني – رحمه الله تعالى: ""وَأَهْلِيكُمْ" بأمرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه "نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة" أي ناراً عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدّم بيان هذا في سورة البقرة.

قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار في الآخرة.

وقال قتادة، ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم.

قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب، ومن هذا قوله: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا" [طه : 132]، وقوله: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين" [الشعراء : 224]"[2].

وكما جاء في الحديث؛ أن تعليم العقيدة وغرسها أصلها الأسرة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – كان يحدث قال: قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء". ثم يقول أبو هريرة – رضي الله عنه –: (فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية. متفق عليه.

وكما جاء أيضًا؛ أن الرجل والمرأة في الأسرة مسؤلان عن تبعة التربية والتنشئة للأولاد، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". متفق عليه.

وجاء في الحديث أيضًا؛ أن غرس القيم الشرعية، والشعائر التعبدية، إنما هو بالأصل على كاهل الأسرة المسلمة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع". رواه أبو داود وحسنه الألباني.

ولا ننسى هنا بعد هذا وصية الأب الشفوق الناصح لولده، المهذب لعقيدته وأخلاقه، ذلكم هو لقمان الحكيم – عليه السلام –، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه لتكون

خير معين على البر والتربية فقال تعالى: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" [لقمان: 13-19].

كل هذه النصوص القرآنية والنبوية وغيرها، تلقي بالتبعة والمسؤولية التربوية في أصلها على كاهل الوالدين، على الأسرة المسلمة، وتحملهم هذه العبء الثقيل، ورحم الله أيامًا كان الناس فيها يقدرون هذه الرسالة فيذهبون بأولادهم إلى المربين والمعلمين، ليهذبوا أخلاقهم، ويرشدوا عقولهم، ويشحذوا هممهم.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني قول عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده: "ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاح نفسك فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنته، والقبيح ما استقبحته. علمهم كتاب الله، وروهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه، ولا تكرههم على علم فيملوه ولا تدعهم فيهجروه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فازدحام العلم في السمع مضلة للفهم. وعلمهم سير الحكماء وهددهم وأدبهم دوني، ولا تتكل على كفاية منك واستزدني بتأثيرك أزدك إنشاء الله تعالى".

وجاء في مروج الذهب للمسعودي أن الأحمر النحوي قال: "بعث إليَ الرشيدُ لتأديب ولده محمد الأمين، فلما دخلت قال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصَيَّر يَدك عليه مبسوطَة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، اقرئه القرآن، وعرفه الأثار، وَرَوه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبدأه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه، وَرَفْع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها، من غير أن تَخْرُق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فَيَسْتَحْلِيَ الفراغ ويألفه، وقوِّمْهُ ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهُمَا فعليك بالشدة والغلظة"[3].

وقد قال الشاعر في معرض التربية:

مَشَى الطاووسُ يوماً باعْوجاجٍ فقلدَ شكلَ مَشيتِهِ بنوهُ

فقالَ علامَ تختالونَ؟ فقالوا: بدأْتَ به ونحنُ مقلِدوهُ

فخالِفْ سيركَ المعوجَّ واعدلْ فإنا إن عدلْتَ معدلوه

أمَا تدري أبانا كلُّ فرعٍ يجاري بالخُطى من أدبوه

وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منا على ما كان عوَّدَه أبوه

التربية واجب لا مفر منه:

إذًا الواجب على الوالدين القيام بمهام التربية الإسلامية الصحيحة للأولاد، وألا يتخلوا عن هذه الأمانة العظيمة في أعناقهم، وألا يقفوا موقف الناظر فحسب، الذي يتألم على ما يرى دون أن يقدم يد العون لغيره، فإن الله تعالى نهانا عن الخيانة لله ورسوله والمؤمنين، والذي يضيع أمانة التربية لأسرته، والأخذ بأيديهم من الهلاك والانحراف لا ريب أنه واقع في هذه الخيانة العظمى.

إن على الأسرة المسلمة أن تقوم بغرس حب الدين وشعائره في قلوب أبنائها وبناتها، وعليها أن تغرس حب العبادة والقرآن والذكر فيهم، كما أن عليها أن تحفظهم من وسائل الانحراف والضلال، من الإعلام المقروء والمرئي والمسموع، وأن تحذرهم أصدقاء السوء، وأن تربطهم بكتاب الله وسنة رسوله، والمساجد وأهل العلم، فإن الأمانة عظيمة، وإن خطب الأمة جلل..

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله –: "فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدى: فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبَل الآباء، وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءَهم كباراً"[4].

* * *

* الهامش:

([1]) تفسير ابن سعدي.

([2]) فتح القدير؛ للشوكاني.

([3]) انظر؛ مروج الذهب.

([4]) تحفة المودود؛ لابن القيم؛ ص: 229.

حاجة أولادنا إلى منهج القرآن التربوي

ما أجل منهج القرآن في تربية النفوس وتزكيتها، وما أعلى مكانة المربي حينما يجعل القرآن ومنهاجه الأقوم هو عماد تربيته ومنهاجه كذلك.

وأولادنا اليوم في وسط هذا الكم الكبير من الفتن والمغريات والمستغربات والشهوات والشبهات أولادنا في حاجة إلى المنهج الأقوم في البناء والتربية، وذلك لعدة أسباب منها:

1 – في حاجة ملحة وماسة إلى منهج يصحح لهم عقائدهم التي ربما يشوبها شيء من الشبهات والانحرافات بسبب تعدد مناهج التربية ،وربما تناقضها كثيراً واضطرابها في عرض تصور صحيح عن مفاهيم العقيدة الإسلامية ،وبيان سبل الوقاية من خطر الزيغ والانحراف عنها ،ذلك أننا نرى حولنا فرق ومذاهب تسمى أحيانا بالإسلامية ومنها ما هو فكرى تصوري ومنها ما هو وجودي إلحادي ومنها ما هو متحلل إباحي وهكذا مخاطر كثيرة ومتعددة المناهج والمعتقدات.

وجل هذه الفرق والمذاهب فيها ما فيها من مزالق الانحراف والزيغ ما حذر الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحينما ترى شاباً في مقتبل عمره يعتنق مذهباً منها، يأسف القلب كمداً عندها لما وصل لهذا وغيره من هذا الخلل والانحراف عن التصور الصحيح عن الكون والحياة وعن الدين والإله.

ولا ريب أن العاصم من كل ذلك ملازمة منهج القرآن الصحيح الصافي الذي جعله الله تعالى عصمة من كل ضلالة وزيغ وفتنة.

2- ونحن في حاجة ماسة أيضاً إلى منهاج القرآن التربوي لأن الفساد الأخلاقي صار اليوم أيضاً داءً عضالاً ومرضاً مستشرياً بشدة في الأجيال المتأخرة وذلك لأسباب كثيرة :

منها: جهل كثير من المسلمين بمحاسن الشريعة الإسلامية وبما جاءت به من الحث على مكارم الأخلاق والإعلاء من شأن أصحاب الأخلاق الحسنة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومنها حب الدنيا والانغماس في طلبها واللهث الدائم خلفها بغية الطمع فيما لا يدوم ولا يبقي ولكنه الشيطان وشهوات النفوس الزائغة عن الرضي بما قسم الله تعالى من أجل ذلك يبيع كثير من الناس أخلاقهم ومبادئهم بالسب والشتم واللعن والكذب والغش والظلم بغية جمع شيء من حطام الدنيا الفانية.

ومنها: مكر الأعداء بشباب الأمة الإسلامية والكيد لهم في الليل والنهار بغية إفسادهم وإبعادهم عن حقيقة دينهم ومحاسنه السامية وما كل ذلك إلا ليتمكنوا من خلق أجيال تنتسب إلى الإسلام شكلاً ولا تعرف عن حقيقة الإسلام شيئاً يذكر ومن ثم تحقق أمثال هذه الأجيال مآرب الأعداء بلا جهد منهم ولا مشقة ولا عناء.

ولا ريب أن هؤلاء ناصبوا الأمة العداء والكيد بكثير من غرس الشهوات المنحرفة في النفوس من حب جمع الأموال من خلال صور اقتصادية وتجارية لا تعرف الإسلام في تعاملها ولا تجارتها فتأكل من الربا والغش والاحتيال بصور كثيرة،وكذلك فتحهم لأسباب حب الشهوات المحرمة من الإباحية وحب النساء بلا ضوابط أو قيود تنظم للناس معاشهم وتحفظهم من الوقوع في حمأة الشهوات الجارفة والفتن والرذيلة،ففتحوا دور السينمات والأفلام الفاجرة والأغاني الهابطة ولا يزالون يضربون على هذا الوتر إلى اليوم مع نفث شيء من المسكرات والمخدرات لإضعاف الأبدان عن التطلع إلى العافية واليقظة والدفاع عن الأوطان والدين والشريعة والجهاد في سبيل الله تعالى.

3- ونحن في حاجة ماسة أيضاً إلى المنهج القرآني التربوي بسبب اضطراب مناهج التربية نفسها ، فالمناهج التربوية اليوم متخبطة كثيراً ومتأثرة بالغرب والولع بتقليده في كل ما يأتي به حقاً كان أو باطلاً صواباً كان أو خطأً.

4- ونحن في حاجة ماسة للمنهج القرآني لأنه هو المنهج التربوي الشامل الكامل والمحفوظ من كل تغيير أو تحريف أو تبديل أو نقص أو خلل،ولأنه المنهج المنزل من عند الله تعالى الذي يعلم النفس البشرية، ويعلم ما يهذبها ويصلحها، ويعلم ما ينفعها ويضرها،ويعلم ما يهديها ويقومها وما يغويها ويشقيها، ولأنه ليس من عند أفكار أو تصورات قاصرة ، وليس من عند مناهج بشرية تغلب النفس وشهواتها على مرضاة ربها وموجدها،أو تغلب العقل على الوجدان أو الوجدان على العقل أو على العاطفة وهكذا، لكنه منهج الله وحده الذي أقام به وفيه كل مقومات البناء العقدي والأخلاقي والتعبدي والحياتي كلها على أحسن وأكمل وجوهها، بل كان ذلك واقعاً مرئياً وبشرياً أقامه الله بكتابه في النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم، فحملوا هداياته وإشراقاته وعلومه وأخلاقه وتشريعاته الكاملة الشاملة فصانوا به الدنيا والآخرة ، فما أجله وأكرمه من منهج رباني محفوظ\"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون\" كلام الله تعالى لخلقه.

لكل هذه الأسباب وغيرها نحن في حاجة إلى منهج تربوي عاصم ،منهج فيه الجمع بين خيري الدنيا والآخرة،وفيه المفاهيم العقدية الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة،وفيه الوقاية من الانحراف والفساد الأخلاقي مع تهذيب النفس والارتقاء بها إلى حيث مكانة الإنسان السامية التي تؤهله إلى خلافة لله تعالى في أرضه .

وكل ذلك جاء به القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم،وجاء بمنهاجه القويم الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور،وهداهم إلى معرفة خالقهم وعبادته وحده لا شريك له،وفتح لهم به الدنيا وخيراتها وكنوزها تحت سيف الجهاد في سبيل الله وحده،

وليس في سبيل الدنيا القليلة الفانية،وجاء بالعلم وكشف مغاليق الكون والحياة والكثير منها الذي لم يكن يعلمه الإنسان لولا هداية الله تعالى وحده،فحكموا الدنيا وصاروا أسيادها وقادتها فهل لنا إليهم من سبيل...؟؟.

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه العزيز: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراًكبيراً".

* * *

الصحابة في حياة الأسرة المسلمة

من الأمور التي باتت من المسلمات الشرعية ولا ريب **"حب الصحابة"** – رضي الله عنهم – وتوقيرهم وحفظ مكانتهم، وهذه عقيدة واضحة لدى كل مسلم، إلا أن أعداء الإسلام وشريعته، وأعداء الصحابة الكرام لا يفتئون بين الحين والحين من إخراج ما تكن صدورهم من الحقد الدفين، والحسد القاتل، لهذه الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة.

ونحن نقرأ صباح مساء بعض هذه السقوط الفكري والإيماني، والتدني الرخيص بالأقلام والكلمات للنيل منهم، والتشفي فيهم، إلا أننا في ذات الوقت نعلم أنهم، لا يضرهم كيد من خذلهم ولا من خالفهم.

ومن جانب آخر في ذات الأمر، نرى أن كثيرًا من الأسر المسلمة، والشباب المسلم لا يعلم شيئًا يذكر عن أسماء الصحابة فضلًا عن تراجمهم، وتاريخهم، وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

ولقد سألت كثيرًا وفي أكثر من موقف ومناسبة بعض الشباب في المرحلة الثانوية والجامعية عن العشرة المبشرين بالجنة؛ **من هم؟ وما أسمائهم؟**

فكان الجواب مؤسفًا غاية الأسف، ومؤلمًا غير الألم، حيث ذكر أكثر من 70٪ بالمائة منهم ثلاثة أو أربعة من العشرة المبشرين بالجنة فحسب، وتوقفوا عن الباقي، أما النسبة المتبقية فما عرفوا إلا واحدًا أو اثنين منهم، وما ذكرهم جميعًا إلا نسبة لا تتعدى الخمسة أفراد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إذًا فقد بدا لنا غياب دور الأسرة الكبير في التعريف "بالصحابة" وشرفهم وقدرهم، فضلًا عن دور التعليم هي الأخرى، فالواجب أن تقوم الأسرة المسلمة بتقريب حياة

الصحابة الكرام، وتعلميهم قصصهم وسيرهم وجهادهم وعبادتهم للأجيال الناشئة، حتى تغرس فيها قيم الرجولة والبطولة من جديد.

وإن إيجاد الكتب المبسطة لقصص الصحابة وتحفيز الأولاد على قرائتها، وكذلك الأشرطة الصوتية، والأسطوانات الرقمية، والمجلات، وتكوين مكتبة صغيرة في زاوية من البيت، وحكاية ذلك لهم، والجلوس إلى الأولاد ولو مرة في الأسبوع، بات هذا الأمر من الأهمية بمكان، ومن الضرورة الشرعية أيضًا بمكان، للحفاظ على بيضة الإسلام، ورد كيد أعداءه..، فهل تقوم الأسر المسلمة بدورها كما ينبغي!

* * *

أهؤلاء النساء إماء ... ؟

فتنة انتشار صور النساء بالمجلات والصحف والإنترنت

نظرة مؤلمة :

أتعجب كثيراً وأقف في حيرة الحليم، حينما أرى هذه الصورة المؤرقة المحزنة، التي تترى على أبصارنا كثيراً كثيراً، وتملأ القلوب بعاصفة مزلزلة من الفتن والشهوات واللذات المحرمة، إنها الصور المتبرجة والعارية الفاضحة على صفحات العالم من المجلات والدوريات والجرائد وصفحات الشبكة العنكبوتية (Internet)، فضلاً عن الشوارع والسينما والشاشات والفضائيات وكذلك الإعلانات المخزية للسلع والمنتجات وغالب المطعومات والمشروبات.

ويزداد الألم والكمد حينما نعلم أنها صورة من صور قومٍ تسموا بأسمائنا، وسكنوا بيننا، وكثير منهم أقارب لنا، فهم أمهات وأخوات، وخالات وعمات، وزوجات وبنات، ومحارم وأصهار، وجيران ومعارف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كانت المرأة في الجاهلية الأولى من سقط المتاع، لا كرامة لها توزن بها إنسانيتها، لا وزن ولا اعتبار لأنها شئ قليل حقير، لا مكانة لأنها ليست كالرجال، لا سلطان لأنها ليست صاحبة القرار، لا ملكية لأنها مملوكة وما ملكت، لا حرية لأنها عبدة مستعبدة، لا اختيار لأنها تحت إمرة سيدها، لا تصرف لأنها لا تملك شيئاً، متاع لكل من أراد، شهوة لكل طالب لذة في الحرام أو في الحلال سواء، أمة تباع في أسواق النخاسة والعبيد، ذليلة حسيرة كسيرة، توأد حيةً بالقتل والدفن بين الحفر والرمال، وبين أحضان العواصف

الهائجة في تخوم الجبال، وما كان لها من شأن إلا بقايا من دين إبراهيم عليه السلام أو مروأة الرجال، إلى آخر ذلك من الذل والهوان، وهذه هي امرأة الجاهلية الأولى وبنتها..

تكريم رباني :

أما الإسلام ... فقد غير مجرى تاريخ المرأة ، وصاغ بناء شخصيتها بناء جديداً فريداً ، حقاً أقول لقد ولدت المرأة في دين الإسلام مولداً جديداً طاهراً ، لقد رفعها الإسلام وصان لها كرامة إنسانيتها ، لأنها مخلوقة كالرجل ومن الرجل وللرجل سواء بسواء كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً".

وقال تعالى: "وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ".

وقال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

وفك الإسلام قيود الجاهلية من الذل والاستعباد لها، وقدم لها الحرية في حدود الشريعة التي رسمها الله تعالى، وتحفظ لها كرامتها وأنوثتها وإنسانيتها..

لقد صاغ الإسلام سياجاً وقائياً قوياً ، لحماية المرأة من أن ينالها سوء أو مكروه، أوتقع ثانية في موارد الذل والإهانة والعبودية لغير خالقها تعالى، فمن ذلك :

1 – أن كرم الإسلام المرأة تكريما عظيما ، كرمها باعتبارها (أُمّاً) يجب برها وطاعتها والإحسان إليها ، وجعل رضاها من رضا الله تعالى ، وأخبر أن الجنة عند قدميها ، أي أن

أقرب طريق إلى الجنة يكون عن طريقها ، وحرم عقوقها وإغضابها ولو بمجرد التأفف ، وجعل حقها أعظم من حق الوالد ، وأكد العناية بها في حال كبرها وضعفها ، وكل ذلك في نصوص عديدة من القرآن والسنة .

ومن ذلك : قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) الأحقاف/ 15 ، وقوله: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الإسراء/ 23، 24 .

وروى ابن ماجه (2781) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ : قَالَ : وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : ارْجِعْ فَبَرَّهَا . ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ الْجَانِبِ الآخَرِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، قَالَ : وَيْحَكَ ! أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرَّهَا . ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، قَالَ : وَيْحَكَ ! أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : وَيْحَكَ الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ) صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة . وهو عند النسائي (3104) بلفظ: (فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا) .

وروى البخاري (5971) ومسلم (2548) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ : أُمُّكَ . قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُمُّكَ . قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ .قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ). إلى غير ذلك من النصوص التي لا يتسع المقام لذكرها .

وقد جعل الإسلام من حق الأم على ولدها أن ينفق عليها إذا احتاجت إلى النفقة ، ما دام قادرا مستطيعا ، ولهذا لم يعرف عن أهل الإسلام طيلة قرون عديدة أن المرأة تُترك في دور العجزة ، أو يخرجها ابنها من البيت ، أو يمتنع أبناؤها من النفقة عليها ، أو تحتاج مع وجودهم إلى العمل لتأكل وتشرب .

2- وكرم الإسلام المرأة زوجةً ، فأوصى بها الأزواج خيرا ، وأمر بالإحسان في عشرتها ، وأخبر أن لها من الحق مثل ما للزوج إلا أنه يزيد عليها درجة ، لمسئوليته في الإنفاق والقيام على شئون الأسرة ، وبين أن خير المسلمين أفضلُهم تعاملا مع زوجته ، وحرم أخذ مالها بغير رضاها ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء/ 19 ، وقوله : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة/ 228 .

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) رواه البخاري (3331) ومسلم (1468) .

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي) رواه الترمذي (3895) وابن ماجه (1977) وصححه الألباني في صحيح الترمذي .

3- وكرمها بنتا ، فحث على تربيتها وتعليمها ، وجعل لتربية البنات أجرا عظيماً ، ومن ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ) رواه مسلم (2631) .

وروى ابن ماجه (3669) عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ ، وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه . وقوله : (من جِدَته) أي من غناه .

4- وكرم الإسلام المرأة أختا وعمة وخالة ، فأمر بصلة الرحم ، وحث على ذلك ، وحرم قطيعتها في نصوص كثيرة ، منها : قوله صلى الله عليه وسلم : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ) رواه ابن ماجه (3251) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

وروى البخاري (5988) عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ : قال اللهُ تعالى – عن الرحم- : (مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ) .

وقد تجتمع هذه الأوجه في المرأة الواحدة ، فتكون زوجة وبنتا وأما وأختا وعمة وخالة ، فينالها التكريم من هذه الأوجه مجتمعة .

وبالجملة ؛ فالإسلام رفع من شأن المرأة ، وسوى بينها وبين الرجل في أكثر الأحكام ، فهي مأمورة مثله بالإيمان والطاعة ، ومساوية له في جزاء الآخرة ، ولها حق التعبير ، تنصح وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو إلى الله ، ولها حق التملك ، تبيع وتشتري ، وترث ، وتتصدق وتهب ، ولا يجوز لأحد أن يأخذ مالها بغير رضاها ، ولها حق الحياة الكريمة ، لا يُعتدى عليها ، ولا تُظلم . ولها حق التعليم ، بل يجب أن تتعلم ما تحتاجه في دينها . ومن قارن بين حقوق المرأة في الإسلام وما كلنت عليه في الجاهلية أو في الحضارات الأخرى علم حقيقة ما قلناه ، بل نجزم بأن المرأة لم تكرم تكريما أعظم مما كرمت به في الإسلام .

ولا داعي لأن نذكر حال المرأة في مجتمع الإغريق أو الفرس أو اليهود ، لكن حتى المجتمعات النصرانية كان لها موقف سيء مع المرأة ، فقد اجتمع اللاهوتيون في "مجمع ماكون" ليبحثوا : هل المرأة جسد بحت أم جسد ذو روح ؟!

وغلب على آرائهم أنها خِلْو من الروح الناجية ، ولا يستثنى من ذلك إلا مريم عليها السلام . وعقد الفرنسيون مؤتمرا سنة 586م للبحث في شأن المرأة : هل لها روح أم لا ؟

وإذا كانت لها روح هي روح حيوانية أم روح إنسانية ؟ وأخيرا قرروا أنها إنسان ! ولكنها خلقت لخدمة الرجل فحسب .

وأصدر البرلمان الإنجليزي قرارا في عصر هنري الثامن يحظر على المرأة أن تقرأ "العهد الجديد" لأنها تعتبر نجسة . والقانون الإنجليزي حتى عام 1805 م كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات .

وفي العصر الحديث أصبحت المرأة تطرد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكي تبدأ في العمل لنيل لقمة العيش ، وإذا ما رغبت في البقاء في المنزل فإنها تدفع لوالديها إيجار غرفتها وثمن طعامها وغسيل ملابسها ! ينظر: "عودة الحجاب" (2/ 47- 56) .

فكيف يقارن هذا بالإسلام الذي أمر ببرها والإحسان إليها وإكرامها ، والإنفاق عليها ؟! (الإسلام سؤال وجواب).

5- ومن ذلك أيضاً : أن الإسلام صاغ لها قواعد جليلة كبرى حفاظاً عليها من عبث العابثين ، وشهوات المغرضين والغاوين.

فمما شرع الإسلام :

أولاً: أمر المرأة المسلمة بالقرار في بيتها .

ثانياً: منع الاختلاط عند الخروج .

ثالثاً: منع الدخول عليهن والاختلاء بهن .

رابعاً : حرم سفرها من غير محرم .

خامساً : أمرها بلبس الحجاب والاحتشام عند الخروج من بيتها وقرارها للحاجة والضرورة والعلم والبيع والشراء ، وحرم عليها التبرج والعري والسفور ، وإظهار الزينة والمفاتن .

سادساً : أمرهن بغض البصر عن الرجال إلا من ضرورة شرعية ، وكذلك أمر الرجال بالعفة وغض البصر عن المحرم من النظر إلى النساء . إلى غير ذلك من قواعد صيانتها والمحافظة عليها من لوث الجاهليات البشرية، والشهوات المحرمة الجامحة في النفوس الدنيئة الضعيفة.

نداء الفطرة :

واليوم وبعد طول زمان ، عبث العابثون ، وطمع الطامعون ، خلف هذه الجوهرة المصونة ، واللؤلوة المكنونة بنت الإسلام ، فأخرجوها من قعر بيتها ، ومكان تشريفها ، ولباس حيائها وعفتها وطهرها ، وابتكروا لها وسائل متنوعة من العبث واللهو بها ، وجعلها دمية بأيديهم ، ومحلاً لشهواتهم الرخيصة ، وخدعوها وقالوا حرروها ، وأعروها وجردوها من لباسها وجوهرها ، وقالوا قدموها وطوروها ، وجعلوها محلاً نجساً لأغراض فروجهم وفواحشهم ، وقالوا وردة زاهية نستنشق عبيرها.

لقد صيروها لاعبة للكرة تتعرى في النوادى من أجلها ، وصيروها ممثلة وفنانة زعموا ليتمتعوا بها من خلف الكواليس الشيطانية ، وليغروا بها السفهاء والإماء والجاهلين، وصيروها قائداً للسيارات توصلهم إلى أغراضهم الدنيئة كثيراً ، وصيروها رئيسة للوزراء ، وقاضية للمحاكم ، ومديرة للنوادي ، وخادمة للركاب في الطائرات والاستراحات ، وتقديم المنافع وربما الفواحش والزنا في الفنادق والبارات، وجعلوها عارضة للأزياء العالمية والموضات ، وجعلوها تاجرة مروجة للسلع والمأكولات وأطباق الحلويات، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى..

وليت شعري ماذا قدمت المدنية العصرية الحديثة للمرأة من جديد، في عالم التقدم والحرية، كل ذلك فضلاً عن أنها صورها وجمالها الذي يلفت انتباه الناظرين، والآن صارت صورة المرأة فضلاً عن جسدها تعرض بأرخص الأثمان، تعرض على صفحات

الشبكة العنكبوتية بلا خجل أو وجل، وسؤال راودني كثيراً، أين آبائهم وأمهاتهم؟ وأين إخوانهم وأقربائهم؟ وأين.. وأين.. وأين..

ذكرتني هذه الصور المؤلمة من التردي والتلهي بالمرأة المسلمة، بما كانت عليه أيام الجاهلية ، فالإسلام أمر المرأة بالستر والحجاب عن الرجال ، فكيف بالعالم .

لقد أمرت المرأة بالحجاب وتميزت الحرة به دون الإماء من العبيد والخدم وغيرهن ، حتى قالت هند رضي الله عنها وهي تبايع النبي – صلى الله عليه وسلم – على ترك الزني والفواحش : أو تزني الحرة يا رسول الله؟

نعم أو تنشر الحرة اليوم صورها ولباسها وتعريها على صفحات الجرائد والمجلات والجرائد؟

أو تنشر الحرة زينتها وجمالها ليراها كل العالمين من الصالحين والطامعين والمغرضين؟

أو تصنع المرأة اليوم مدونة أو موقعاً لها أو منتدىً تنشر فيه ما لديها من حيائها وعفتها وكرامتها؟

إن كل ذلك من صفات الإماء والعبيد وليس من صفات الحرائر والعفائف والطاهرات.

حقاً: لقد تحولت المرأة اليوم من جديد ببعدها عن معينها ومنبع عزها إلى أمة تباع على كل الوجوه ، وتعرض في كل الأماكن وبأرخص الأثمان.

فمتى ترجع المرأة المسلمة الحرة العفيفة إلى النور؟ ومتى تتلمح البصيرة والهداية؟ ومتى تعلن التوبة والرجعة؟

ومتى تسلك طريق الصالحات القانتات خلف النساء الحرائر؟ ومتى تفقه فقه عائشة أم المؤمنين، وحياء فاطمة الزهراء البتول؟ وطهارة مريم بنت عمران، وعزة آسية بنت مزاحم، ونفاسة نفيسة البيت والعلم؟

ومتى يصحوا قلبها وإيمانها ليقول لها: أو تزني الحرة يا رسول الله؟

نعم أو تنشر الحرة اليوم صورها ولباسها وتعريها على صفحات الجرائد والمجلات والجرائد ، في خزي فاضح ، وعيب لائح؟

عصمنا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن..

* * *

الفصل الثاني

على الطريق

مظاهر الغفلة في حياتنا المعاصرة

1- تحذير القرآن من الغفلة وأهلها:

لا ريبَ أنَّ الأمم تمرُّ بمِحنٍ وشدائد، تهذِّبها تارة، وتربِّيها تارة، وتَرْفع عنها غبارَ الطريق تارةً أخرى، كما أنَّ المِحن قد تكون صورةً من العقاب والتوبيخ، وإنَّ مِن المحن والرزايا التي أصابتْ أمَّتَنا اليوم في مقتلٍ: الغفلةَ بما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ وحقائق، مِن التِّيه والنسيان، في شتَّى مجالات الحياة البشرية.

يقول الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر، في تقديمه لكتاب "في مهب المعركة"، مصورًا هذه الظاهرة: "وأشدُّ النكبات التي يُصاب بها البَشرُ نكبةُ الغفلة..."؛ "مالك بن نبي، في مهب المعركة، تقديم محمود محمد شاكر".

والغفلة آفةٌ قاتلة، وداءٌ عُضال فتَّاك، وطريق يكثر فيه السالكون إلاَّ مَن رَحِم الله تعالى، دبَّ هذا الداء في جَسَد الأمَّة الإسلامية منذ عدَّة قرون، وأقعَدها عن سبيلها، وأوْهن مِن قُواها، وشغلها أيَّما شغل عن رسالتها وغايتها في هذه الحياة الدنيا، والمتأمِّل في آيات القرآن يرى أنَّ الله - تعالى - قد أنذر وحذَّر مِن هذا الداء المهلِك، الذي أصابَ الأُمم، وأقعدَها عن السبيل الأَمَم، بل وحلَّ بها عقاب الله - تعالى - المعجَّل؛ كما قال - تعالى -: في كتابه لرسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: 6، 7].

قال ابن سعدي - رحمه الله تعالى - في تفسيره: "وهم العرب الأُميُّون، الذين لم يزالوا خالين مِن الكتب، عادمين الرُّسل، قد عمتْهم الجهالة، وغمرتْهم الضلالة، وأَضحكوا عليهم وعلى سفههم عقولَ العالمين، فأرسل اللهَّ إليهم رسولاً مِن أنفسهم، يُزكِّيهم

ويُعلِّمهم الكِتاب والحِكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميِّين، ومَن لحق بهم من كلِّ أُمِّي، ويذكر أهل الكتب بما عندَهم من الكتب، فنِعمة اللهَّ به على العرب خصوصًا، وعلى غيرهم عمومًا، ولكن هؤلاء الذين بُعثتَ فيهم لإنذارهم بعدَما أنذرْتَهم، انقسموا قسمين: قسم ردَّ ما جئتَ به، ولم يقبلِ النذارة، وهم الذين قال اللهَّ فيهم: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: نفذ فيهم القضاءُ والمشيئة، أنَّهم لا يزالون في كُفْرهم وشِرْكهم، وإنما حقَّ عليهم القول بعدَ أن عرض عليهم الحق فرَفضوه، فحينئذ عُوقِبوا بالطبْع على قلوبهم"؛ "تفسير ابن سعدي".

وقال صاحب "الظلال" – رحمه الله –: "والغفلة أشدُّ ما يُفسِد القلوب، فالقلْب الغافل قلْب مُعطَّل عن وظيفته، معطَّل عن الالْتقاط والتأثُّر والاستجابة، تمرُّ به دلائلُ الهدى، أو يمرُّ بها دون أن يحسَّها أو يدركها، ودون أن ينبض أو يستقبل، ومِن ثَمَّ كان الإنذار هو أليقَ شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضتِ الأجيال دون أن ينذرَهم منذِرٌ، أو ينبههم منبِّه، فهم مِن ذرية إسماعيلَ، ولم يكن لهم بعدَه من رسول، فالإنذار قد يُوقِظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأتِهم ولم يأتِ آباءَهم نذير.

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين، وعمَّا نَزَل بهم من قدر الله، وَفقَ ما علم الله مِن قلوبهم ومِن أمرهم، ما كان منه وما سيكون: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.. لقد قُضِي في أمرهم، وحَقَّ قدرُ الله على أكثرهم، بما علِمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم، فهم لا يؤمنون، وهذا هو المصيرُ الأخير للأكثرين، فإنَّ نفوسهم محجوبةٌ عن الهدى، مشدودةٌ عن رؤية دلائله أو استشعارها"؛ "في ظلال القرآن".

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: 7، 8].

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره: "يقول الله – تعالى – مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلِقاء الله يومَ القيامة، ولا يرجون في لِقاء الله شيئًا، ورَضُوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنَّتْ إليها أنفسُهم.

قال الحسن: والله ما زيَّنوها ولا رفعوها، حتى رضُوا بها، وهم غافلون عن آياتِ الله الكونيَّةِ فلا يتفكَّرون فيها، والشرعيَّةِ فلا يأتمِرون بها؛ بأنَّ مأواهم يومَ معادهم النار، جزاءً على ما كانوا يكسِبون في دنياهم من الآثام والخَطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكُفر بالله ورسوله واليوم الآخِر"؛ "تفسير ابن كثير".

وهنا تأتي آياتُ القرآن تُوحي بعاقبة الغافلين عن آيات الله ورسالاته؛ قال – تعالى – : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 136]، وقال – تعالى –: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 146]، وقال – تعالى –: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 172].

وتأتي آياتٌ أخرى تُبصِّر الناس بطريق الهدى، وصُحْبة الصالحين المتقين، وتحذِّر من طريق الرَّدَى، وصُحْبة الأشقياء الغافلين؛ كما قال – تعالى –: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: 28].

2– مظاهر الغفلة في الحياة المعاصرة:

إنَّ الغفلة إذا عمَّ خطرُها، أوشكتْ بالهلاك للأمم، وإنَّ اليقظة والبصيرة إذا لاح سبيلُها، فنِعم الطريق للسالكين، وإنَّ أخطر ما تمرُّ به الأمَّة اليوم هذا الداء القاتل، الذي

بدَتْ لنا مظاهرُه في كثيرٍ من مجالات الحياة الإسلامية، في الجانب الفردي، وفي الجانب الجَماعي، وهذه صُور ونماذج تدلِّل على فُشوِّ الغفلة في الأمة الإسلامية خاصَّة، بل وفي غيرها من الأمم:

1 - الغفلة عن أشراط الساعة:

مِن مظاهر الغفلة في حياة كثيرٍ من الناس اليوم: الغفلة عن علامات الساعة وأشراطها؛ حيث إنَّ الله - تعالى - جعَل ظهور هذه العلامات دليلاً على اقتراب يومِ القِيامة، ومحاسبة الله للخلائق، كلٌّ يُجزَى بعمله؛ كما قال - تعالى -: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 1].

وقال - تعالى -: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ [محمد: 18]، ومع ذلك يقع الناسُ في غفلة شديدة، حيث يرَوْن انتشارَ الرِّبا والزِّنا، وشرْب الخمور والمسكرات، وضرْب المعازف والقينات، وكثرة الفواحِش والمنكرات، ولا يلقون بالاً لمثل هذه العلامات الكبيرة، والتي تستوجب عليهم التوبة إلى الله منها، والاستعداد للدار الآخِرة.

2 - الغفلة عن المهمات والأولويات:

ومنها كذلك الغفلة عن المهمَّات والأولويات، والانشغال بالتوافِه والشهوات، وما يلحق بها ممَّا يُضيع الأعمارَ والأوقات، فنجد في أمَّتنا مَن شُغِل بالنِّساء والحب والغرام، ونجد مَن شُغل بالنوادي والمباريات، بينما كان الواجبُ عليهم الانشغالَ بما هو أوْلى وأجْدى، وأنفع في الدنيا والآخرة.

فالانشغال بتصحيح التوحيد والعقيدة، والانشغال بتصحيح العبادة، وتهذيب الأخلاق، والانشغال بالدَّعْوة إلى الله، وهداية الناس، والانشغال بقضايا الأمَّة وهمومها،

والانشغال بتربية الشباب بالعِلم الشرعي، وإعدادِهم للجِهاد في سبيل الله تعالى - كلُّ ذلك أَوْلى وأجْدَى، وأهمُّ وأنفعُ مِن غيره من كثيرٍ من التوافه والمُلهيات.

3- الغفلة عن الدار الآخرة والاستعداد لها:

ومِن مظاهر الغفلة أيضًا: الغفلة عن الدار الآخرة - يوم القيامة - والاستعداد لها، والرُّكون إلى حبِّ الدنيا وزينتها، والانغماس الشديد في طلبها، واستعجال التَّرَف والمُتعة، واللذَّة والراحة في دار الحياة الدنيا؛ كما قال - تعالى -: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [القيامة: 20 -21]. وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَـؤُلاَء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان: 27].

4- الاستخفاف بأوامر الله ورسوله:

ومنها الاستخفاف والاستهانة بأوامِر الله ورسوله، ومقارفة الكبائر والمحرَّمات، وترْك التورُّع عن فعْل الذنوب والسيئات، حيث دبَّ في كثير من الناس هذا الداء، فلا يكاد المرءُ يستحيي من فِعْل الفاحشة ولا مقدماتها، ولا من أكْل الرِّبا وأموال الناس بالباطل، ولا يتورَّع بنفسه عن مواطنِ الشُّبهات والمحرَّمات، ولا ينأى بنفسه عن سماع الغِناء والمعازف، كما قد يظنُّ بعضُهم أنَّ ذلك من القضاء والقَدَر، وأنه كُتِب عليه حظُّه من الزنا وأنه مدرِك ذلك لا محالة، وأنَّ ما وقع فيه ليس إلا قدرًا كُتِب في سابق الأزل، وهو فاعل لهذا القدر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله العظيم.

ومنهم مَن يقع في ذلك استهانةً منه بأنواع العقوبات، التي جاء الوعيدُ بها في الكتاب والسُّنة، ولا يعبأ بآيات القرآن والتدبُّر فيها، ولا النظر في عواقِب ومصير الغافلين.

5- التقليد الأعمى للكفار:

والتقليد الأعْمى لأهل الكفر والشرك مظهرٌ لا يكاد تَرفع بصرَك حتى تراه في مجالاتٍ كثيرة، حيث التقليدُ في شؤون القضاء والحُكم والسياسة، والتبعية العمياء لدول

الكُفْر والإلحاد في ذلك، والتقليد في المَلْبس والمظهر، حيث الشبابُ المخنَّث، والتغزُّل والغرام، وضحالة الثقافة والفِكر، وضياع معالِم الولاء والبراء في عقيدة المسلِم، وحب التقليد الدائم والمستمر لكلِّ ما هو غربي وشرقي.

وقد جاءتْ نصوص الوحيين من القرآن والسُّنة تحذِّر من هذا المسلَك المذموم؛ حيث قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: 51].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري: أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((لَتتبعُنَّ سَنَنَ مَن قبلكم شِبرًا بشبر، وذِراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لتبعتموهم)). قيل: يا رسولَ الله اليهود والنصارى؟ قال: ((فمَن؟!))؛ متفق عليه.

هذه أهمُّ معالِم ومظاهر الغفلة في حياة الأمَّة المعاصِرة اليوم، والتي ينبغي عليها أن تتخلَّص منها؛ لتصحوَ من رقادها، وتستبينَ طريقها، وإلا فإنَّ الأمَّة ستظلُّ مضروبةً بيد من الذُّلِّ والهوان، من قِبل أعدائها، وستظلُّ تدور حولَ رحاها بلا طعام يُشبِعها، ولا منهج يَهديها.

3- طوق النجاة من الغفلة:

إنَّ الغفلة أمرٌ وارد على النفس البشرية، ولكن حسْب الإنسانِ أن يسعى دائمًا إلى معالِم اليقظة والبصيرة؛ حتى لا يُؤخَذ على غِرَّة مع الغافلين، سَأَلَ رجلٌ ابن الجوزي: أيجوز أن أفسح لنفسي في مباحِ الملاهي؟ فقال: "عندَ نفسك من الغفلة ما يَكْفيها"، وقال ابن القيم - رحمه الله -: "لا بدَّ مِن سِنَة الغفلة، ورُقاد الهوى، ولكن كن خفيفَ النَّوم".

وهذه بعض ملامح النجاة مِن سِنَة الغفلة القاتلة، نُشير إليها بإيجاز:

1- إنَّ المخرَج لأمتنا من هذه الغفلة، وطوقَ النجاة لها، لا يكاد يغيب عنَّا في آيات القرآن المُنْزَل، ولا في وحي النبيِّ المُرْسَل - صلَّى الله عليه وسلَّم - حيث الاعتصامُ والاستمساك بحبْل الله ورسوله، وتحقيق الوحْدة بالأُخوة الإيمانية؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 153].

وقال - تعالى -: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِّ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 103].

قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معْنى كتاب الله وسُنَّةٍ ولا قياسٍ، وإنَّما تكون الغفلة في الفُرْقة.

وقال - تعالى -: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِّ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: 175].

وقال - تعالى - أيضًا: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: 123، 124].

وكما جاء في حديث عبدالله بن مسعود، قال: خطَّ لنا رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - خطًّا، ثم قال: ((هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شِماله، وقال: هذه سُبلٌ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ الآية))؛ رواه أحمد والنسائي والدارمي، وصحَّحه الألباني.

وفي خُطبة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في حجَّة الوداع حثَّ على التمسُّك بالكتاب والسُّنة، حيث قال: ((وقد تركتُ فيكم ما إنِ اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بينًا: كتابَ الله، وسُنَّة نبيه))؛ رواه مالك.

فالاعتصامُ بالله ورسوله نجاةٌ للأمَّة من طوق الغفلة، وهدايةٌ لها إلى الطريق الصحيح، فلا الْتواءَ ولا اعوجاج، ولا زيغَ ولا انحراف، ولا بِدعَ ولا أهواء.

2– والدعوة إلى هذا المنهج الربَّاني سبيلٌ لنجاة الأمَّة، ويقظتها من غفلتها، وسعادتها في الدنيا والآخِرة، وتنبيه للغافلين بأحكام الله وشريعته، ودِين الرسول وسُنته؛ كما قال – تعالى –: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104]، وقال – تعالى –: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110].

3– وتحقيق عقيدة لله ولرسوله وللمؤمنين والبَراء من الكافرين، وعدم موالاتهم، والتقرُّب إليهم، والسَّيْر في رِكابهم، والتقليد الأعمى لِما يحملون من عقائدَ ومناهجَ وأخلاق، تُصادِم الدِّين والقِيم، كل ذلك نجاة مِن طوق الغفلة؛ كما قال – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة: 51، 52].

وكما قال – تعالى – عن خليله إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: 4].

وكما قال – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: 100 – 101].

4– والاستعداد للدار الآخِرة، بالعمل الصالِح، وترْك الانغماس في حبِّ الدنيا وملذاتها – طوقُ النجاة من الغفلة؛ كما قال – تعالى –: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: 19].

وقال – تعالى –: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: 15]، وقال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 110].

وقال – تعالى –: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 134].

وقال – تعالى –: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: 20]، وقال – تعالى –: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ [الشورى: 47].

وما توانَى العاملون، ولا تأخَّر الكسالى إلا بسبب الغفلة عن الآخِرة، والانشغال عن العمل للآخِرة، أمَّا أهل الصلاح فهُم خلاف ذلك؛ كما أخبر تعالى: ﴿ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [النور: 37]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ

آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 9].

إنَّ الدنيا سرعانَ ما تبلَى، وعمَّا قريب ستفْنَى، وليس لها عندَ الله شأنٌ ولا اعتبار، وإنما هي قنطرة إلى الجنة أو النار؛ يقول – عزَّ وجلَّ –: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحياةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: 20].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه –: أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((إنَّ الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإنَّ الله تعالى مُستخلِفُكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النِّساء))؛ رواه مسلم في صحيحه.

5– والاستعاذة بالله تعالى، والاستعانة به وحْدَه، على مكايد الشيطان وحبائله، وشرورِه ومصايده – طوقٌ للنجاة من الغفلة؛ كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 200، 201].

6– والضَّرْب على أيدي الظالمين، والوقوف أمامَهم، ونهيهم عن الفساد والطغيان – طوقُ نجاة من الغفلة أيضًا؛ كما قال – تعالى –: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: 116].

* * *

أمتنا بين الواقع المعاصر وطريق العودة

هذه تأمُّلات بإيجازٍ للوقوف مع واقع أمَّتنا الإسلامية اليوم، وكيف السبيل إلى العودة والبناء والتغيير، ونركِّز حديثنا في نقاط متتالية فيما يلي:

أولاً: واقع الأمة الإسلامية المعاصر:

1 - واقع أمَّتنا المعاصر:

ينبغي أولاً أن نعلم أن أمَّتنا الإسلامية اليوم تحيا في مرحلة حرجة من مراحل التاريخ، وتعيش في الوقت ذاته واقعًا مريرًا، كما أنها تحيا حياة الذل والهوان والاستكانة، وترضخ لما يُملَى عليها من أعوان الكفر والإلحاد من كلِّ أمة، ومن كلِّ جنس ولون، ولا تزال أمَّتنا تأكل فتات الموائد العالمية، وما زالت أيضًا هي القصعة المستباحة لكلِّ الأمم من الشرق أو الغرب؛ كما أخبر بذلك النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - منذ ألف وأربعمائة وثلاثين سنة في حديث القصعة المشهور والمحفوظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

روى الإمام أحمد في "مسنده" عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((يوشِك أن تداعَى عليكم الأمم من كلِّ أفق، كما تداعَى الأكلة على قصعتها))، قلنا: يا رسول الله، أمن قلَّة منَّا يومئذ؟ قال: ((أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنزَع المهابة من قلوب عدوِّكم، ويُجعَل الوهن))، قالوا: وما الوهن؟ قال: ((حب الدنيا وكراهة الموت)).

وها نحن اليوم نرى تلك الهجمة الشرسة الجديدة من أعداء الله ورسوله – صـلَّى الله عليه وسلَّم – من الشيوعية المادية الملحِدة، والصهيونية العالمية الماكرة، والصليبية الجديدة الخادعة، وغيرهم من العملاء والأذناب.

وأمة الإسلام اليوم في الوقت ذاته أمَّة شاردة عن رسالتها، غافلة عن غايتهـا، حيـث نراها تتخبَّط ذات اليمين وذات الشـمال، وعـدوُّها اللـدود باسِـط إليهـا ذراعيـه بـالفِتَن والشهوات، فهي أمَّة صارت ممزَّقة فيما بينها، مزَّقتها الحدود والسدود، ومزَّقتها مؤامرات الأعداء المخطَّطة للنَّيْلِ منها، وأصبح بأسُها بينها شديدًا، وحالها لا يخفـى عـلى قريـب أو بعيد.

فهي أمَّة تلعب في أشهر الملاعب العالمية، وترقص على أشهر وأرقى المسارح العالمية، وهي كذلك مترنِّحة بين الشيوعية مرَّة، وبين الصليبية مرَّة، وبين الصهيونية أخرى، وبـين العلمانية رابعة وخامسة، وكلُّ هذا جعل أحد الشعراء ينشد أبياتًا من الشـعر ينسـج فيهـا خيوط الواقع الأليم، الذي تحياه الأمَّة الإسلامية اليوم فيقول:

مَا كَانَ فِي مَاضِي الزَّمَانِ مُحَرَّمًا ... لِلنَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مُبَاحُ
صَاغُوا نُعُوتَ فَضَائِلٍ لِعُيُوبِهِمْ ... فَتَعَذَّرَ التَّمْيِيزُ وَالإِصْلاَحُ
فَالْفَتْكُ فَنٌّ وَالخِدَاعُ سِيَاسَةٌ ... وَغِنَى اللُّصُوصِ بَرَاعَةٌ وَنَجَـاحُ
وَالعُرْيُ ظُرْفٌ وَالفَسَادُ تَمَدُّنٌ ... وَالكِذْبُ لُطْفٌ وَالرِّيَاءُ صَلاَحُ

إن الحال الذي آلَ إليه واقع أمَّتنا، وجعلها تغرق فيـه عقـودًا طويلـة، لـن يغـيِّره مـا يكتب العلماء في مصنَّفاتهم فقط، ولا الأدباء في هجائهم ورثائهم، ولا ما تنشره الصـحف والمجلاَّت من مقالات ساخنة، ولا ما يلقيه الوعَّاظ في وعظهم وتذكيرهم، أو الخطبـاء في حماسهم وإنذارهم، وإن كنَّا نؤمن أن ذلك كله من وسائل التغيير والإصلاح.

ولكن كل هذه الوسائل لن تجدي من الإصلاح والتغيير شيئًا، إن لم يكن لها ما يؤهِّلها من قواعد وأسس ترتكز عليها أولاً، وتعمل وتنطلق من خلالها، ومن ثَمَّ تستمدُّ قوَّتها، وتُعِيد بناءها، وترفع لواءها، وتستعيد مجدها وكرامتها المسلوبة منذ قرون.

إن أدقَّ تشخيص لحالة أمَّتنا اليوم - كما أشار أحد الكتَّاب المعاصرين - هو أننا مُصابون بما يُشبِه الشلل المعنوي والفكري في جميع أجهزتنا الأخلاقية، وملكاتنا النفسية، ومواهبنا الشخصية، وطاقاتنا العقلية، والعملية والعلمية، وكذا الاقتصادية والعددية، والروحية، كما أشار أحد الكتَّاب في مقال من مقالاته، كلُّ ذلك يجعلنا في عجز عن الحراك الصحيح نحو تحقيق أهدافنا، وتأكيد وجودنا، وإثبات ذاتنا، مع أنه من الواجب على المسلم أن يدرك وأن يعي ما يخطِّطه أعداء الإسلام والمسلمين، من الكيد لأمَّة الإسلام والنَّيْلِ منها.

فإن الداعية إن لم يدرك حقيقة المعركة، وحقيقة المؤامرة، فهو في غفلة عن واقعه الذي يعيش فيه، ويحيط به، وإلا فإن عليه أن يعي كلَّ ذلك، وأن يضع في الاعتبار في دعوته أن يتحرَّك بصدق لهذا الدين، وأن يوقظ النائمين بصوت إسلامه، وصوت قرآنه الذي يحمله بين جانبيه، وبكمال شريعته، وبواقعية منهجه، وبسهولة تطبيقه وممارسته.

إن تبليغ الحق للناس، وتعريَة الباطل لهم، وكشف زيفه، وإبراز وجهه القبيح - يُفسِد على أعدائنا طريقهم الماكر، وكيدهم الخبيث، وتخطيطهم المحكَم الذي يزعمون، وصدق الله - تعالى -: {فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ} [الروم: 30].

وهنا يجسِّد واقع الأمة الإسلامية وصورتها الشيخ أبو الحسن الندوي - رحمه الله - فيقول: "ورضي عامَّة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي، وسرت فيهم أخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء

في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك؛ فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها.

ترى تهافتًا على الشهوات ونهمًا للحياة، نهم مَن لا يؤمن بالآخرة، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدَّخر من طيباتها شيئًا، وترى تنافسًا في أسباب الجاه والفخار، وتكالبًا عليها، فعل مَن يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها.

وترى إيثارًا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق، شأن مَن لا يؤمن بنبيٍّ ولا بكتابٍ، ولا يرجو معادًا ولا يخشى حسابًا.

وترى حب الحياة وكراهة الموت، دأب مَن يعدُّ الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومنتهى أمله ومبلغ علمه.

وترى افتتانًا بالزخارف والمظاهر الجوفاء، كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضوعًا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب، وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبَدَة الأوثان"[1].

2- أسباب ضعف الأمة الإسلامية:

وحقيقة الأمر أن الوهن والضعف والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية كانت له عِدَّة أسباب وعوامل، كان من أبرزها وأهمها فيما يبدو لي في هذا التأريخ:

أولاً: سوء الفهم للإسلام وعقيدته وشريعته وأحكامه:

وهذا الداء العُضَال دبَّ في الأمَّة الإسلامية منذ العصور الأولى للإسلام؛ حيث كان من أوَّل مَن وقع فيه الخوارج الذين خرجوا على خلافة سيدنا على - رضي الله عنه - وكفَّروه وادَّعوا بأنه حكَّم الرجال في دين الله، وقد ناظَرَهم ابن عباس - رضي الله عنهما - وأقام عليهم الحجَّة وبيَّن لهم جهلهم الكبير بحقيقة الاستدلال وفَهْمِ الكتاب والسنة،

ثم جاءت القدرية من بلاد العراق، وتبرَّأ منهم ابن عمر - رضي الله عنهما - والشيعة الذين خالَفوا كثيرًا في حق الموالاة والنصرة والثأر الذي زعموا للحسين - رضي الله عنه - ثم المعتزلة والمرجئة والجهمية والصوفية، وغيرهم من هذه الفِرَق والمذاهب التي وقعتْ بسبب سوء الفهم فيما وقعتْ فيه من البِدَع والأهواء والضلالات.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: "وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوءُ الفهم عن الله ورسوله... إلخ".

وقد تأثَّر المسلمون كثيرًا على طول الزمان بأفهام مغلوطة وقاصِرَة عن فَهْمِ حقائق الإسلام كما جاءت في الكتاب والسنة، ففهموا العقيدة على أنها لا تعني سوى القول باللسان، وأنه يكفيهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، موقنة بها قلوبهم دون اعتبار لأيِّ عمل في ظواهرهم يثبت انتماءهم لهذه الكلمة.

وفهموا الإيمان بالقَدَر على أنه اتِّكال على عفو الله وكرمه، وأنه ترْك للسعي والتعمير في الأرض؛ لأن الدنيا آخِرتها فناء، والسعادة الأبدية إنما تكون حقيقة في دار الجزاء والنعيم، فلا داعي إذًا للعمل والتعمير والبناء.

وفهموا أن السياسة الإسلامية الشرعية لا تعني سوى إدارة الحكم والسلطان فحسب، وفهموا أن قول الحق لا يعني إلا الخطابة والوعظ وتعليم العلم الشرعي، وتركوا الساسة والحكَّام والظالمين يفعلون ما شاؤوا دون حسيب أو رقيب يردعهم عن طغيانهم وظلمهم، إلا قلَّة قليلة من الصادقين من أهل العلم والصدع بالحق، وكما قال الدكتور محمد قطب: اختَزَلوا مفاهيم الإسلام الكبيرة في أشياء محدودة.

ومن هنا تركت الأمَّة ميادين الحياة كلها إلا قليلاً ممَّا كانت عليه، وتكاسَلت وتأخَّرت عن دورها الرائد في قيادة العالم كما كانت في القرون السالفة، في حين أن أوروبا

وما جاوَرَها بدأت في يقظة سريعة بعد طول سبات وجهل، بدأت في خطوات تسعى نحو الحضارة المادية والمدنية، تسابق الريح والعواصف.

فجاءت الكارثة لمَّا تحولت عندها دفَّة القيادة من أهل العلم وأصحاب الوحي الرباني، الذين فتحوا الدنيا شرقًا وغربًا، وملكوها قرونًا وأحقابًا من الزمان، وبرعوا في كلِّ ميادين الحياة والعلوم، تحوَّلت إلى الرجل الغربي الذي لا يعرف من دنياه سوى الطعام والشراب والشهوة، ولا شاغل له سوى المادة واللهث وراء الثروات، وما أدّى بالأمة إلا سوء فهمها لحقيقة رسالتها التي ابتعثها الله – تعالى – من أجلها من إقامة العبودية لله – تعالى – وإعمار الأرض، فتركت العالم والعلم وانشغلت بالشهوات والكراسي والسلطان، واتَّكلت على سعة عفو الله ومغفرته.

ثانيًا: التآمر الصليبي واليهودي ضد العالم الإسلامي:

وهنا نؤكِّد بدايةً أن حديثنا في هذا المحور لا يعني إطلاقًا أننا نلقي بالتبعات على الأعداء وتآمرهم على المنهج الإسلامي، لكننا نؤكِّد سنَّة من سنن الله الجارية، وهي سنَّة التدافع بين الحق والباطل؛ {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِّ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [البقرة: 251].

لقد بدأت الغارات التترية والصليبية على جسد الأمة والعالم الإسلامي، وثارت العداوات وأشعلت الحرب نيرانها ضد الإسلام والمسلمين، حقدًا وحسدًا، وطمعًا في جمع خيرات العرب والمسلمين، فسخَّر الله لها رجالاً أعادوا للأمَّة عزَّتها ومجدها، ووقفوا بالمرصاد بصدق إيمانهم وعودتهم إلى شريعة الإسلام، فجاء سيف الدين قطز وتصدَّى بإيمانه وعزيمته، فكان النصر والظفر، ووقف أمام المدِّ الصليبي عماد الدين زنكي الذي تصدَّى لهم في معارك مختلفة.

ثم قاد الزمام من بعده نور الدين محمود زنكي الذي خطَّ خطًّا قويًّا للدفاع عن بلاد الإسلام والمسلمين، فاتَّخذ قرارًا بإجلاء الصليبيين من بلاد الشام والعمل على استعادة المسجد الأقصى من قبضتهم، ولكن جاءه الأجل، فأكمل المسيرة من بعده الفاتح المِغْوَار صلاح الدين الأيوبي.

وقد أدرك المخاطر الكبيرة التي أحاطت بالعالم الإسلامي يومها؛ فقام بالتخطيط والاستعداد الإيماني والعسكري وبالصدق مع الله - تعالى - بالوقوف والزحف نحو الصليبيين وبيت المقدس، بعد أن أعلن عن الجهاد في سبيل الله - تعالى - فانضمَّ العالم الإسلامي تحت لوائه ورايته، يطلب رضا الله والجنة، ورد عزَّة الإسلام والمسلمين، فكانت الغَلَبة والنصرة التي أعادت المسجد الأقصى وحرَّرت بلاد الشام، وحصلت النكاية لأعداء الإسلام، كما تَمَّ دحر المذهب الشيعي، والتصدِّي له؛ ممَّا أحدث به التراجع والانحصار.

ثم جاء من بعده نكوص آخر في الأمة الإسلامية، حتى العصر الحديث، فتآمَر المد الصليبي بأحقاده الدفينة مع المد والفكر الصهيوني اليهودي، بالوقوف مرَّة أخرى أمام العالم الإسلامي وشن الحروب العسكرية عليه.

ولكنهم جاؤوا مع ذلك بنوع جديد من الحروب الفكرية، والثقافية التي غزوا بها جسد وعقول أمَّتنا، فدخلوا على ديار المسلمين بنوعين جديدين من الحروب، وهما حرب الشهوات والشبهات، فأدخلوا دور السينما والمسارح في بلاد المسلمين، ونشروا الفساد الأخلاقي بنشر ثقافة العهر والإباحية، ونشر الأغاني الماجنة، والأفلام والمسلسلات الهابطة، ووظَّفوا جنودًا لهم ينشرون سموم المخدرات بين الشباب المسلم؛ لإضعاف أبدانهم عن الجهاد في سبيل الله - تعالى - ونصرة الإسلام.

وجاؤوا بِمَن سموهم الأدباء والمفكِّرين الذي أسهموا بنشر هذه الثقافات المستغربة بين الأمة وشبابها.

وأمَّا الشبهات فقد استخدموا نفس السلاح من المثقفين والكتاب في بثِّ الشكوك حول الثوابت الشرعية، وأصول الدين، في كونه لا يصلح لهذا الزمان، ولا يصحُّ أن يقود العالم اليوم مَن له حظ من التديُّن والاستقامة، فشكَّكوا في صلاحية قيادة وأحكام الإسلام للسياسات والحكومات، وإدارة فنون الاقتصاد وصورها.

وشكَّكوا أيضًا في مصداقية العدل الإسلامي وأنه ظلم المرأة ولم يوفِّها حقَّها، فابتكروا قضايا ومشكلات للمرأة المسلمة ليس لها في الحق نصيب، ولكنه جهل الأمة بحقيقة دينها وشريعة ربها ونبيها - صلَّى الله عليه وسلَّم - وزجُّوا بها في ميادين الرجال والأعمال والسياسة والقضاء، وقالوا: لقد حرَّرنا هذه المرأة التي ظُلِمت، وجرَّدوها من لباس حجابها وحيائها، وقالوا: قدَّمنا المرأة خطوة للأمام، وصدَقوا؛ لأنهم قدَّموها إلى الهاوية والرذيلة والفساد الأخلاقي والديني، ومن ثَمَّ سموا ذلك تقدُّمًا وتحرُّرًا، ليخدعوا السُّذَّج والرِّعَاع، ومَن لا خلاق لهم في الدين ولا علم ولا بصيرة.

ولم يكتفوا بذلك، ولكنهم قاموا بحروبٍ متنوِّعة مختلفة يمكن تلخيصها في هذه النقاط:

1- التواطؤ على إسقاط الخلافة الإسلامية وتقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة.

2- إقامة الدول الإسلامية على أساس غربي وعلماني ونظم وضعية لا تعرف الإسلام.

3- فتح الانتشار التغريبي والتنصيري أمام المستشرقين والمنصِّرين للتشكيك في الإسلام وعقيدته وشريعته، ومن ثَمَّ زعزعة الإسلام في نفوس المسلمين.

4- إقامة دولة إسرائيل المزعومة على أرض فلسطين والقدس ثم ما حولها من الدول، وذلك من خلال نشر الماسونية السرية والروتاري والليونز لإحكام السيطرة على بلاد المسلمين.

5- إحياء الثقافات التاريخية البائدة؛ كالفرعونية والإغريقية والرومانية، والعمل على تمجيدها والافتخار بتراثها وحضارتها، مع تشويه الثقافة الإسلامية ورموزها على طول التاريخ[2].

هذه أهمُّ وأبرز النكبات التي أفرزها التآمُر الصليبي والصهيوني على بلاد الإسلام والتوحيد؛ لإحكام السيطرة عليها، ومن ثَمَّ العبث بمقدراته وثرواته ونفطه وخيراته.

3- صيحة الحق:

وبعد كلِّ هذا الذي أشرنا إليه وأوضحناه من حال الأمة وواقعها، وحال أعداء الأمَّة في تكالبهم على الأمَّة والعبث بمقدَّراتها وعقائدها، علينا أن نعلم أن كلَّ هذا لا يجعلنا نشرد بعيدًا، ولا أن نورث القلوب يأسًا وقنوطًا.

ولكني أقول:

ما زالت هناك صيحة الحق تعلو على كلِّ الأصوات، وتنادي بالعودة الصادقة إلى الأصالة الإسلامية وأصولها من الكتاب والسنة بمنهج وفهم سلف الأمة الصالحين، وإلى منابع السعادة، ومبادئ الرفعة والسيادة والتمكين، وتنادي أيضًا بحتمية التغيير والإصلاح لواقعنا المعاصر، في كلِّ مناحي الحياة، ومجالات الإدارة والاقتصاد على الأخص، وتنادي أيضًا بجَعْلِ الإسلام ومنهاجه القرآن هو الدستور الأعلى للأمَّة ومنهاجها، كما كان في عهد النبوَّة المحمدية، والخلافة الإسلامية الراشدة على مرِّ القرون.

نعم، لقد آنَ الأوَان أن تعود أمَّة التوحيد والإسلام إلى شريعة ربها، وأن تعود إلى سنَّة نبيِّها، وإلى القرآن دستورها، وأن تشعل الإيمان المخدَّر في القلوب الغافلة، وأن تغرسه في

الأجيال الصاعدة؛ لتكون أهلاً لحمل رسالة الإسلام والهدى، ولتبليغ مبادئها لكل العالمين، لا بُدَّ لنا من هذه العودة الصادقة الجادَّة.

ولا بُدَّ لنا كذلك من اتِّخاذ الأسباب الموصلة إليها، الهادية إلى طريقها، لماذا؟

لأن الأمة الإسلامية فرَّت فرارًا كبيرًا إلى كلِّ ما يبعدها عن هدى الله - تعالى - وقرآنه، وعن هدي رسولها - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسنَّته، وعن طريق عزِّها وشرفها وسيادتها، لقد جرَّبت الأمَّة كلَّ ألوان الفرار وأنواعه، حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من الذل والاستكانة والاستعباد.

لقد فرَّت أمَّتنا إلى الفاحشة والعري والزِّنا، وفرَّت إلى الخنا والإباحية، والإسفاف بالأخلاق والتميُّع بالقِيَم، فماذا حصدت الأمة من وراء ذلك؟ ما حصدت إلا ضياع الأعراض، وانتهاك الحرمات، وفساد الأخلاق وانحلالها، وانتشار الفواحش والعري علنًا، وتمرُّد الأجيال، وانتشار الأوبئة والأمراض الخبيثة؛ كالزهري والسيلان المنوي، وأخطرها مرض الإيدز المدمِّر، والذي لا يزال الطب الحديث عاجزًا عن معرفة طرق الشفاء منه.

وفرَّت الأمة كذلك إلى التعامل الربوي وإعلان الفوائد المحرَّمة، والإسهام في البورصات العالمية والاستثمارية، فما حصدت إلا انتشار الفقر والبطالة بين الأجيال المتلاحقة، وما حصدت إلا انتشار الفساد الاقتصادي والسرقة المعلنة في مقدَّرات الأمة وثرواتها وممتلكاتها.

وفرَّت الأمَّة أيضًا إلى تحكيم القوانين الوضعية المستوردة، فما حصدت إلا ضياع نعمة الأمن والأمان، وظهور الحرام بكلِّ صُوَره وأشكاله، من أَخْذِ الرشوة، والسرقة، وشهادة الزور، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وما حصدت إلا استعباد الأمم الكافرة لها، وتحكُّمها فيها، وإدارة شؤونها وحياتها ومقدَّراتها، والعبث بأمنها وأخلاقها

وعقيدتها، حتى صارت الأمة قصعة مستباحة لكلِّ أحد، وغنيمة مشبعة، ولعبة مسلية بأيدي العابثين.

الآن وبعد هذه الهوَّة الكبيرة من الانحراف والضياع، والذلَّة والهوان، فقد آنَ الأوان لأمَّة الإسلام أن تفرَّ إلى الله حقَّ الفرار، وأن تعتصم به حقَّ الاعتصام؛ كما قال - سبحانه -: {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: 50].

نعم، جرَّبت أمَّتنا كلَّ ألوان الفرار فلم تجدِ ولم تهدِ، فلتجرِّب مرَّة الفرار إلى ربها وقرآنها، ولتجرِّب الفرار إلى سنَّة نبيِّها وشريعتها، وسترى النتائج الكريمة بعد ذلك.

إن الجاهلية الأولى ملكت أصحابها وحكمتهم ردحًا من الزمان، حتى بُعِث لَبِنَة التمام، ومسك الختام، محمد - عليه الصلاة والسلام - فنبذوا الجاهلية وراء ظهورهم، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، وبعد أن فرُّوا إلى ربهم، وإلى الإيمان والتصديق والتسليم لنبيِّهم، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أنهم أصبحوا سادة وقادة، وصاروا أعزة بعد ذلَّة، وأصحاب علم وبصيرة بعد غفلة وجهالة، وسادة ملك وأمَّة، بعد تشتُّت وفرقة، والتاريخ الإسلامي ثري بهذه الحقائق، والقرآن يحدثنا عن ذلك فيقول - تعالى -: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: 103].

ولكن السؤال الآن: من أين تبدأ العودة إلى الله؟ ومن أين تبدأ هذه الهداية؟ ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير؟

نقول أولاً:

إن حسن كلِّ نهاية أصله صلاح كلِّ بداية، فالبدايات هي محاسن النهايات، فمَن حسنت بدايته، كملت نهايته وخاتمته بالحسن والصلاح.

إنه لا بُدَّ لنا ولأمَّتنا من البداية الصحيحة لطريق الهداية والإسلام، حتى تثبت أقدام الإسلام، وتصلح أمَّة التوحيد والهدى، بترسيخ عقائدها، وتهذيب أخلاقها، وتحكيم شريعتها، وحتى ترفع ألويتها، وتعيد مجدها وحضارتها.

وإن بداية الهداية، وأصل التغيير والإصلاح لا تأتي من الخارج، كلاَّ، بل من الداخل؛ وهذا مصداق قول الله – تعالى –: {إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]، وإن هذه البداية والعودة لا يحكمها أمر واحد فقط، بل إنها تقوم على جملة مترابطة من المبادئ والمرتكزات، والأصول والمقدمات.

ثانيًا: وجوب العودة إلى هدي الكتاب والسنة بمنهج السلف:

فممَّا لا شك فيه أن الأمَّة الإسلامية في حاجة ماسَّة إلى الهداية إلى معالم الشرع وطرق الهداية التي أرادها الله – تعالى – منها، وإن بداية الهداية لهذه الأمة تكمن في العودة إلى هدي الكتاب والسنَّة عودة صادقة، والاعتصام بحبلها على هدي سلف الأمة – عليهم رضوان الله – فمتى عدنا إلى الكتاب والسنة فزنا وأفلحنا، ومتى أعرضنا عنها ضللنا وشقينا.

وما كلُّ ما يحدث لنا اليوم إلا من جرَّاء الإعراض والصد عن هدى الوحيين الصافيين، وصدق الله إذ يقول: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: 123–126].

إن العودة إلى لزوم هدي الكتاب والسنة في كلِّ مجالات الحياة ليست تطوُّعًا ولا نفلاً نتقرَّب به إلى الله بأدائه، كلا، بل هذه العودة فرضٌ على كلِّ مسلم مكلَّف بالغ عاقل، سواء أكان رجلاً أم امرأة.

ولنكن على يقين كامل، وثقة مؤكَّدة، أنه لا عزَّ لأمتنا ولا نصر لها ولا كرامة إلا بهذه البداية، وإلا بهذه العودة الجادة إلى الله – سبحانه – وإلى رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولنعلم أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فلنسرع الخطا بالعودة إلى القرآن والسنة، وإلى الاستجابة لأحكامها؛ فإن فيهما الخير والهداية لنا إن أردنا ذلك.

إن الكتاب والسنة أصلان كبيران لهذا الدين؛ لأنهما ركن من أركان الإيمان، فمَن كفر بالكتاب أو بالسنة فقد كفر بالإسلام كله، فعلى كلِّ مسلم أن يؤمن بالكتاب والسنة، وأن يعظمهما، ويجلَّهما ويخدمهما؛ قال – تعالى –: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: 32].

كما أنه يجب على كلِّ مسلم الإذعان لله ورسوله، والاعتقاد بوجوب التزام الكتاب والسنة، ووجوب متابعة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما قال – تعالى –: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

ومن هنا فإن الواجب على المسلم رجلاً كان أو امرأة أن يعلم العلم اليقيني بوجوب أن يتقيَّد في كلِّ حركة من حركاته، وسكنة من سكانته، ونفَس من أنفاسه، بالكتاب والسنَّة التي جاء بها النبي المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم – وقد حضَّتْ نصوص كثيرة في الكتاب والسنة على وجوب الالتزام بهما.

فمن آيات القرآن في ذلك:

قوله – تعالى –: {أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59].
وقوله – تعالى –: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ} [الحشر: 7].
وقوله – سبحانه –: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِّ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103].

وقوله – عزَّ وجلَّ –: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ} [المائدة: 15 – 16].

وقوله – تعالى –: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [ص: 29].

قال الحسن: تدبُّر آياته: اتِّباعه والعمل بعلمه.

أمَّا عن نصوص السنة النبوية فمن ذلك ما يلي:

روي البخاري عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: "أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين".

وروي الترمذي عن المقدام بن معد يكرب رفعه: ((ألاَ هل عسى رجل يبلغه الحديث عنِّي، وهو متَّكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله؛ فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرَّمناه، وإن ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله)).

ولأبي داود: ((ألاَ وإني أُوتِيت الكتاب ومثله معه، ألاَ يوشك رجل شبعان على أريكته...)) الحديث.

وفي خطبة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في حجة الوداع حث على التمسك بالكتاب والسنة حيث قال: ((وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بينًا: كتاب الله، وسنة نبيه))؛ رواه مالك.

وذِكْرُ النصوص في ذلك أمر يطول إيراده، فلنكتف بما أردنا إيضاحه وبيانه، والله المستعان.

إذًا؛ فالإسلام في البداية والنهاية هو التسليم للكتاب والسنة، والكتاب والسنة فيهما بيان كل شيء ممَّا يحتاجه المكلَّف؛ قال - تعالى - عن القرآن: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: 89]، وقال - سبحانه وتعالى -: {وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} [يوسف: 11]، وقال - تعالى -: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ} [النحل: 44].

ذلك أن القرآن الكريم مشتمِل على كلِّ ما يهمُّ الناس في معاشهم ومعادهم، عقيدة وعبادة وسلوكًا، على المستوى الفردي والجماعي، المحلي والعالمي، وذلك في شتَّى المجالات الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والحربية وغيرها، وقد بيَّنَّا ذلك في كتاب **"مجالات الدعوة في القرآن وأصولها"** وفصَّلنا النصوص القرآنية التي تدعو إلى شتَّى هذه المجالات، الإنسانية والعقَدِيَّة والتشريعية والأخلاقية، فليراجع في مكانه.

إذًا؛ فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء، وهذا التبيان القرآني قد يكون بالنص والتصريح، وقد يكون بالإشارة والتلميح، وهذا الأمر ضَمِنَ للقرآن استمرارية العطاء للبشرية، وصلاحية الدين الإسلامي لكلِّ زمان ومكان، فليس بعده دين يكمله أو ينسخه؛ كما قال - سبحانه -: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [المائدة: 3].

إن طريق العودة بالأمَّة الإسلامية إلى الكتاب والسنة هو الطريق القويم والانطلاقة الكبرى نحو البناء والتغيير، والعودة إلى الكتاب والسنة يجب أن تكون حقًّا وصدقًا، ليست عودة الكاذبين.

لقد قامت دولة الإسلام الأولى في مسيرة الإسلام يوم أن حقَّق جيل الصحابة - رضي الله عنهم - حقيقة الاعتصام والتمسُّك بالكتاب والسنَّة في كل شؤون حياتهم، ففتح الله لهم كنوز الأرض ووصلوا مشارق الأرض ومغاربها، حاملين دعوة الحق والهدى.

وتأخر المسلمون عن ركب الحضارة والبناء لما تخلوا عن هذا الطريق، وصارت الدولة لأعدائهم لما ضلوا سواء السبيل.

نكرِّر القول فنقول:

إن العودة إلى منهج الله – تعالى – ليست تطوُّعًا نتقرَّب به، وإنما هي فرض عين على كل مسلم مكلف على وجه الأرض وشريعة ماضية إلى يوم القيامة، شريعة مَن فرَّط في حملها بحقِّها فلا بُدَّ أن يقع في دائرة السنن الربانية؛ كما قال – تعالى –: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38].

* * *

* الهامش:

---

[1] **"ماذا خسر العالم"**: (229).

[2] "العالم الإسلامي والمكائد الدولية"، فتحي يكن، وانظر: "الهوية أو الهاوية"؛ للمقدم.

الصحابة ميزان أهل السنة والجماعة

الصحابة أولاً:

هم تلك الكوكبة المنيرة، والأقمار المضيئة، والنفوس الزاكية، والقلوب الطاهرة، والهمم العالية، والإرادة الصادقة، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وصاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرواحهم وأنفسهم، وآمنوا به وصدقوا رسالته، وصبروا معه على الأذى والكيد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وجاهدوا معه بكل مقومات الجهاد، من جهاد بالكلمة والبيان، وجهاد بالسيف والسنان، وجهاد بالأموال والأنفس.

إنهم الذين عاينت أعينهم خير المرسلين، وصحبت أنفاسهم أنفاسه، وكلماتهم كلماته، وآثارهم آثاره، وخطواتهم خطواته رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، حتى نزل فيهم قول الله تعالى: "وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة:100]،

إنهم المبلغون عن الله ورسوله ما جاء من شريعة الإسلام، ومن ثم فإن فهمهم لنصوص الوحيين الكتاب والسنة مقدم على فهم غيرهم، وعلمهم بالكتاب والسنة وتأويلهم مقدم على علم غيرهم وتأويلهم، لأنهم أول من تلقوا الوحي، وشهدوا التنزيل، ولأنهم كانوا ولا ريب أحرص الناس على التلقي من ذلك المورد العذب، فقد آتاهم الله تعالى حفظاً وفهماً، ودعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانوا لا يأخذون العلم إلا تصديقاً وعملاً بعد أن يثبت لهم ويأتيهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وكانوا يشددون على اتباع السنن، واقتفاء الأثر، ولزوم السكوت عما سكت عنه الله ورسوله.

والمخالفون لمنهجهم وطريقهم ولا ريب واقعون في الفتنة، مستشرفون لها كما قال تعالى: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" [النساء:115]، فدلت الآية على وجوب متابعة سبيل المؤمنين والحذر من الوقوع في الوعيد لمخالفة هذا السبيل الذي سلكوه، وكما ذكرت كتب اللغة والتفسير أن السبيل هو الطريق، وأن أول المؤمنين الذين سلكوا طريق الإيمان والمتابعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم هم الصحابة رضي الله عنهم.

فهم أول من عرف الإيمان والتسليم وكذلك السمع والطاعة وكذلك أيضاً الاتباع للأثر، ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي". وفي بعض الروايات: "هي الجماعة" رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال عنه ابن تيمية: هو حديث صحيح مشهور، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. وعلى هذا فالحديث صحيح.

فهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم من كونه أخبر بما سبق ووقع في الأمم التي تفرقت في دينها، وبما سيقع أيضاً في أمته، فالحديث خبر في سنن الله تعالى القدرية والكونية التي تصيب الأمم بسبب المخالفات التي تقع منهم لمنهج الله ورسله عليهم

السلام كما قال تعالى: +إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ" [الأنعام:159].

وليس كما يقع في بعض الأفهام القاصرة عن إدراك المعنى المراد منه، فتظن أن المراد الرضى بهذا التفرق، وأنه لا مناص منه وأنه لا داعي لرفعه وإزالته لأنه داخل في باب السنن الربانية، ولا شك أن الفهم بهذا نوع من الانحراف في فهم دلالة هذا النص وغيره من نصوص الكتاب والسنة.

* * *

الصحابة ميزان أهل السنة والجماعة .. لماذا..؟.

فالصحابة اليوم بعد هذا التاريخ الطويل في مسيرة دعوة الإسلام، وبعد هذا التفرق الذي وقع اليوم بسبب الانحراف عن الفهم الصحيح للأدلة القرآنية والنبوية، أقول صار الصحابة هم الفيصل الحق، والميزان الصحيح لتقويم مسيرة دعوة الإسلام الطويلة والجليلة طيلة هذه القرون، لماذا؟.

أولاً: لأن كل الفرق المنسوبة للإسلام اليوم تحتج علينا بالكتاب والسنة، فإذا أردت تأصيل منهج أو رد بدعة أو مخالفة ليس لها من الأدلة والنصوص ما يشهد لها أو يثبت شرعيتها، وجدنا هنا أصحابها يوردون لنا من الأدلة وعمومياتها ما يثبت صحة طريقتهم ومنهجهم في الدعوة إلى الله تعالى، أو يثبت صحة مذهبهم ومعتقداتهم التي يريدون لها أتباعاً وأنصاراً.

فالشيعة مثلاً يحتجون لصحة لمذهبهم وطريقتهم بأدلة من الوحيين، ولم يقفوا عند هذا بل قام أناس منهم بالتدليس، والوضع لكثير من النصوص النبوية التي تثبت مكانة أهل البيت، خصوصاً مكانة على وفاطمة والحسين رضي الله عنهم، بل ووضعوا نصوصاً أخرى كاذبة من أقوال الأئمة والعلماء وكذلك التلفيق فيها في هذا الباب وأنهم على حق

في إمامة علي رضي الله عنه، حتى غلوا فيه وقالوا فيه الكثير مما لا أصل له في شريعة الإسلام، ولسنا هنا في معرض بيانها، ومع هذا يستدلون بالكتاب والسنة.

وكذلك الخوارج والمعتزلة، وقس على ذلك أصحاب المدارس والمذاهب الفكرية والعقلية، الذين يأتون بنصوص الوحيين في إثبات العقل ورفع مكانته وعلو قدره حتى يصادموا بهذا العقل نصوص الكتاب والسنة، ومن ثم يهدمون هذين الأصلين بما سموه أدلة في إعلاء العقل، حتى يصير العقل هو الحكم الفصل على الأدلة الشرعية فتبطل الشريعة والأحكام بهذا.

أما على الجانب الآخر في الجماعات الدعوية اليوم، فذات المنهج يكون لديهم في إيراد الأدلة والأقوال والتكثير منها ولو كانت ضعيفة الإسناد، وكل ذلك لإثبات أنهم أصحاب دعوة صحيحة لم يخالفوا فيها كتاباً ولا سنة ولا أثراً عن الأئمة وأهل السنة، وهذا ولا ريب نوع من الاستدلال الذي لا تقوم به الحجة.

لماذا..؟

لأن الكل صار يحتج بالكتاب والسنة، ويقف عند هذا الحد ففي أي الموازين إذا يكون الفصل، وفي أي المسالك والفرق والجماعات هذه يكون الصواب والحق، وفي أي الاتجاهات يكون السير والعمل، إذاً لا بد من حكم فصل يحسم مسار الدعوة ومنهجها، ويقوم مسيرتها، إنه ولا ريب مسلك الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم في القرون المفضلة الأولى، وهذا كما ذكرنا من قبل له من الشواهد والأدلة والبراهين من نصوص القرآن والسنة الكثير والكثير، وحسبنا أن نورد هنا بعضاً منها:

فمن ذلك: إيجاب القرآن اتباع الصحابة رضوان الله عليهم ولزوم طريقتهم، وتوعد من يخالف سبيلهم بالعذاب الأليم، قال الله تعالى: +وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" [النساء: 117]، وهل كان المؤمنون عند نزول هذه الآية الكريمة إلا هم؟

وقال تعالى: +فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [البقرة: 137].

هذا دليل صريح في أن الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم هو الهدى والحق، ومن اهتدى به فإنه على هدى وعلى صراط مستقيم، فالصحابة هم المعنيون بما في الآية أولاً، ثم من سار على دربهم واقتدى بهم من بعدهم ثانيًا.

وقوله تعالى: +قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" [يوسف: 108].

والصحابة رضي الله عنهم هم أول أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فهم على سبيل النبي صلى الله عليه وسلم يدعون إلى الله على بصيرة. وكذلك ثناء الله عز وجل عليهم ورضاه عنهم، قال الله عز وجل: +مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الفتح: 29].

وقوله تعالى: +وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة: 100].

وقوله تعالى: +فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" [الفتح: 26]. وتزكية الرسول صلى الله

عليه وسلم لهم، فقال صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ". متفق عليه، فهذه الآيات والأحاديث دليل على أنهم على هدى وخير وأنهم أهل للاقتداء والاتباع.

ومن الأدلة أيضاً: أن الصحابة هم الجيل الوحيد الكامل الذي لم يكن منهم مبتدع، وإنما ظهرت البدع فيمن بعدهم في آخر عصرهم. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في وصف الخوارج: "يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ". رواه البخاري ومسلم، ولم يقل: منها، لأنه لا يخرج من الصحابة هؤلاء القوم، ولكن يخرج في عصرهم رضوان الله عليهم.

ولذلك لما أراد العلماء أن يُعرِّفوا البدعة نصوا على أن البدعة هي: ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا، فهذه هي البدعة الموصوفة بأنها الضلالة.

وقد كثر الاختلاف والتفرق بين المسلمين بعد عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم، وكل فرقة تفسر النصوص على فهمها، فتجدهم مختلفين في ذلك، وكل فرقة تدعي أن فهمها للنصوص هو الحق، فمن نتبع؟..

الجواب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ" حديث حسن، رواه عدد من الأئمة منهم الترمذي وأبو داود في سننهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً"، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي" حديث حسن، فهذه أدلة صريحة على أن الحق هو اتباع منهج وفهم الصحابة رضوان الله عليهم للنصوص الشرعية.

أما الأدلة العقلية: فمن ذلك: اتفاق أقوال الصحابة رضي الله عنهم في الأصول، فلم يحصل بينهم اختلاف في أصول الاعتقاد وأصول العبادات وأصول النظر والاستدلال. ومن ذلك: إجماع الصحابة على إثبات الصفات، وإجماعهم على وجوب قبول السنة واتباع ما صح منها وعدم رد شيء منها، وإجماعهم على عدم تكفير مرتكب الكبيرة، وغير ذلك.

ومن ذلك: أنهم عرفوا حقيقة الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، لأن بعضهم عاشها بنفسه، والآخرون كانوا حديثي عهد بها، نقلها إليهم أهلوهم وأقاربهم، فلما جاء الإسلام ميزوا بينه وبين الجاهلية.

ومن ذلك: أن السلف الصالح تلقوا الإسلام وتعاليمه صافية نقية، لم يخلطوها بثقافات وافدة من أديان وثنية أو كتابية محرفة، أو فلسفات وضعية، أو علوم كلامية أو غير ذلك.

ومن ذلك: أنهم تلقوا القرآن غضًا طريًا، وهو ينزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وعاينوا الأحداث التي مرت بهم وكانت سببًا لنزول كثير من آياته وسوره، فأدركوا مناسبات الآيات، وسياقها ووجهتها، وتفاعلوا معها، وفهموها حق فهمها، وهذا أيضًا جانب آخر مما امتازوا به على من جاء بعدهم.

ومن ذلك: أنهم سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة دون واسطة، فغالب ما نقلوه عنه أخذوه من فيه، وسمعوه، وأدركوا مقصده ووجهته، وعرفوا مناسبة وروده. التابعون وتابعوهم هم أقرب القرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتابعون عاصروا الصحابة رضوان الله عليهم وأخذوا العلم عنهم. كما أن البدعة في عصرهم كانت أقل من البدعة في العصور التي بعدهم.

وأما الآثار[1]: تلك الآثار عن الصحابة والسلف الصالح والأئمة بلزوم ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه عامة السلف الصالح: فعن ابن

مسعود رضي الله عنه قال: "اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم، كل بدعة ضلالة" .[2] وقال الأوزاعي: "اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم".[3]

وقال: "عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريقٍ مستقيم". رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث، والبيهقي في المدخل إلى السنن، وروى جزء منه الآجري في كتابه الشريعة.

وكان الحسن البصري في مجلس فذكر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال: "إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفا، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم" .[4]

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "إن الله جَلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه بعث محمدًا نبيَّه صلى الله عليه وسلم +بالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" [التوبة : 33]، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله – صلى الله عليه وسلم – الدال على معنى ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصِّه وعامِّه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب.

فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو المعبر عن كتاب الله، الدال على معانيه، شَاهَدَهُ في ذلك أصحابه، من ارتَضَاهُ الله لنبيه واصطفاهُ لَهُ، ونَقَلوا ذلك عنه، فكانوا هُم أعلَم الناسِ برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبما أخبر عن معنى ما أراد الله من ذلك بمُشاهَدَتِهِم ما قَصَد لَه الكتاب، فكانوا هم المُعَبِّرين عن ذلك بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم"[5].

وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني في رسالته: "واللجأ إلى كتاب الله عزوجل وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة".

وقال الإمام أبو القاسم اللالكائي في مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: "أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون".

وقال ابن حجر العسقلاني: "فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف". [6]

وقال الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بشاه ولي الله: "والملة إنما تثبت بالنقل والتوارث، ولا توارث إلا بأن يعظم الذين شاهدوا مواقع الوحي وعرفوا تأويله وشاهدوا سيرة النبي صلى اللهّ عليه وسلم ولم يخلطوا معها تعمقًا ولا تهاونًا ولا ملة أخرى" [7].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فيهم يأتم من صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم، وكونه معهم". [8]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقد دل الإجماع على أن خير هذه الأمة في الأقوال والأعمال والاعتقاد، وغيرها من كل فضيلة، القرن الأول، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأنهم أفضل من كل خلف في كل فضيلة من علم وإيمان وعقل

ودين وبيان وعبادة، وأنهم أول للبيان من كل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم" [9].

فكل هذه الأدلة وغيرها تجعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم هم الميزان الصحيح وقت الفتن ووقوع الافتراق في الأمة الإسلامية، بل وتوجب متابعتهم لما كانوا عليه قبل وقوع هذه الفتن والافتراقات والمذاهب، لأنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ثانياً: لأن الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية، والوقوف أمام المد الجارف من كيد أعدائها وتربصهم بها، وكذلك عصمتها من البدع والأهواء الناشئة من الفرق والجماعات، إنما يكون – هذا الطريق إلى الوحدة – حول الأصول والثوابت العاصمة من التفرق والتشرذم في شريعة الإسلام، وهذا أمر مقرر شرعاً وعقلاً، فالأصول في شريعتنا متفق عليها بين أهل السنة والجماعة ولا خلاف فيها وإلا صار تفرقاً مذموماً.

أما المسائل التي اصطلح بعض أهل العلم بتسميتها بالفروع فالاجتهادات فيها أكثر من أن تنضبط كما قرر وصرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكذلك أشار إليها أبو إسحاق الشاطبي الأصولي الفقيه في الموافقات وكثير من أهل العلم رحمهم الله جميعاً. فأمة النبي صلى الله عليه وسلم متفقة على أن اتباع الصحابة من الأصول الثابتة بنصوص الوحيين المعصومين الكتاب والسنة كما أسلفنا آنفاً.

كما أن عمدة نقل الشريعة موقوف عليهم فهم الذين نقلوا لنا القرآن بالقراءات المتواترة الثابتة الصحيحة، وهم الذين علموها ونشروها بين الخلق، وكذلك هم الذين كانوا أول من تكلم بعد النبي صلى الله عليه وسلم في بيان وتفسير كلام الله تعالى من أمثال سيدنا عبد الله ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، ووقفوا على بيان أسراره وآدابه وشريعته.

كما أنهم الذين نقلوا لنا بعلمهم وعدالتهم ودقة حفظهم السنة النبوية، وكتبوا فيها الصحف والدواوين، ورووا النصوص الكثيرة منها على أنهم تفرقوا في البلاد والأمصار، وحملوا هذا النور الذي بين أيديهم إلى العالمين، ففتحوا به القلوب والبلاد والعباد.

فالصحابة أصل الشريعة وعمادها، وأساس في نقلها وحفظها، فهم بذلك صاروا من الأصول التي تجتمع عليها الأمة إلا من شذ وخالف من أهل البدع والأهواء والضلال، فاجتماع الأمة اليوم يجب أن يكون فيه طريق الصحابة ومنهاجهم الذي كانوا عليه قبل أن تتفرق الأمة فرقاً وأحزاباً وجماعات.

لأن الكل يعظم الصحابة ويجلهم ويعلى لهم مكانتهم التي رفعهم الله تعالى إليها، ويكن لهم الإجلال والإكبار والتوقير فنحن مأمورن بذلك وحسبنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حب الأنصار من الإيمان".

ولكن قد يختلف العاملون في مسيرة الدعوة الإسلامية حول بعض مسائل متناثرة في طريقة التعامل مع أقوال الصحابة واجتهاداتهم في بعض المسائل والأحكام، وهذا وارد بضوابطه التي قررها كثير من علماء الأصول في كتبهم وقواعدهم، مع الوقوف عند إجماع الصحابة فيما اجتمعوا عليه ولا ريب أن إجماعهم حجة بذاته تقوم به الدلالة، وهذا متفق عليه بينهم.

ثالثاً: لأن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليسوا معدودين من أصحاب الفرق والمذاهب ولا حتى الجماعات، لأنهم في الأصل هم الأمة، هم كلهم حزب واحد سماه الله تعالى في كتابه: "أولئك حزب الله" وجعلهم سبحانه وتعالى ضداً وندا لحزب وعسكر الشيطان، وعسكر الجاهلية الشركية إلى يوم القيامة، فالمؤمنون كلهم حزب واحد إنه حزب الله تعالى، ويد واحدة وجماعة واحدة كما ورد أن المسلمين أمة من دون الناس فهم الجماعة المقصودة في الأحاديث النبوية، وهم يد على من سواهم من الناس.

فلا يعد الصحابة فرقة من الفرق ولا جماعة من الجماعات، إلا أنهم جماعة المسلمين وقائدهم ومعلمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهنا نبين هاتين القاعدتين طالما نبهت عليهما كثيراً، وهما في الأصل يهدمان كل الفرق والمذاهب التي خالفت سبيل المؤمنين ومنهجهم إلى يوم القيامة:

القاعدة الأولى: أن كل فرقة من الفرق وجماعة من الجماعات اليوم لها بداية منشأ وتأسيس، ولها تاريخ ومؤسس، صاغ لها المنهج والتصورات، ووضع لها الأصول والقواعد، وجمع لها الأدلة والشواهد لإثبات صحة مذهبه وطريقته.

وأهل السنة والجماعة ومن سار على طريقهم ليسوا كذلك لأنهم هم جماعة المسلمين الأم، فالخوارج لهم مبدأ وتاريخ، وكذلك المعتزلة والرافضة والجهمية والقدرية والأشاعرة والصوفية المنحرفة والمبتدعة، كل هذه الفرق لها مؤسس وتاريخ نشأت فيه في مسيرة دعوة الإسلام الكبيرة، ويدخل في تلك القاعدة أيضاً الجماعات الدعوية كالإخوان والتبليغ والجماعة الإسلامية وغيرها.

أما الصحابة فليسوا كذلك ولا هم من أهل هذا الطريق لأنهم وقفوا عند قوله تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله"، فليس الصحابة جماعة ولها فكر ومنهج ومؤسس، إنما هم جماعة المسلمين التي لا تقبل التفرق داخل صفوفها، إنهم أهل الإسلام الذي أقاموا شريعته حق إقامته، فليسوا هم فرقة ولا جماعة لها تاريخ ومؤسس، إنما هم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهم المسلمون حقاً وصدقاً، أما سائر الفرق فهي التي خالفت طريقهم وسبيلهم.

القاعدة الثانية: أن أصحاب الفرق والمذاهب لا يجعلون الدليل والنص مذهبهم يسيرون معه حيث سار ويقفون معه حيث يقف، كلا بل هم على خلاف ذلك. فهم يجتهدون ويؤولون ويجمعون من الأقوال والآراء ما يرون أنه الحق والصواب ثم يجمعون

له من الأدلة والشواهد والنصوص ما يؤيد قولهم ومذهبهم ولو خالفوا فيه الكتاب والسنة، وهذا جلي واضح في الغالب من أحوالهم، أو يتأولون النصوص، ولهذا لا يتغيرون عن أقوالهم ولا أقوال أئمتهم وأدلتهم ولو طال بهم الزمان إلا أن يروا في ذلك قوة ومصلحة لهم، فهم على قاعدة تمذهب ثم استدل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إنك تجد أكثر أهل الكلام انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل على عدم اليقين" [١٥].

وصدق شيخ الإسلام. وهذا ولا ريب مخالف لما كان عليه الصحابة والسلف رضي الله عنهم، فلقد نقل عن الأئمة الأربعة قولهم: إذا خالف قولي أو مذهبي الحديث الصحيح فاضربوا بقولي عرض الحائط، فجعلوا الحديث والدليل هو عمدتهم ومذهبهم إذا صحة النسبة فيه والسند، فساروا مع الدليل.

ولهذا كان للإمام الشافعي رحمه الله مذهبين القديم في العراق والجديد في مصر وجمع فيه كتابه الأم المشهور المعروف، والإمام أحمد كان له في المسألة قولان وربما ثلاثة، وكثير على هذا الطريق من الأئمة والعلماء.

والمتأمل في واقع الدعوات والجماعات الإسلامية اليوم، يرى أن كثيراً منها لا يقف مع الدليل، ولا يسير حيث صار، إنما هم حقيقة الأمر مقلدون لشيوخهم وافقوا الحق أم خالفوه، مقلدون بشدة وربما شاب قلوبهم التعصب لمنهجهم وجماعتهم، وهذا إجحاف للحق، مخالف للكتاب والسنة.

فتعظيم نصوص الوحيين هو المنهج المتبع عند الصحابة وتابعيهم والأئمة الأعلام رضي الله عنهم، وآثارهم كثيرة أكثر من أن تحصى، أما كثير من هذه الفرق والجماعات اليوم، فلا تقف مع الدليل الشرعي، ولا تهتم به، إلا إن كان يثبت قولهم، ويؤيد مذهبهم.

فالمقصود إذاً بعد كل هذا: أن السبيل العاصم اليوم من الفتن والتفرق في الدين، وأن الميزان الحق إنما يكون في متابعة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وفي الوقوف مع منهجهم وآثارهم وإجماعهم، وأن السعادة ولا ريب في هذا المسلك السديد، والطريق الرشيد، وإلا فالدعوة الإسلامية اليوم ستظل معلقة بيد أبنائها لا ظفر ولا إخفاق، وهذا ما لا نريده ولا نرجوه إنما نريد خلافة على منهاج النبوة وهذا هو السبيل إليها بأمر الله وحده. والله الموفق.

* * *

* الهامش:

([1]) بحث لأحد الدعاة وقفت عليه من زمن.
([2]) انظر كتاب الزهد لوكيع بن الجراح.
([3]) انظر كتاب الشريعة للآجري.
([4]) نفس المصدر.
([5]) طبقات الحنابلة. لابن أبي يعلى بتحقيق الفقي(ج3/ 122).
([6]) فتح الباري. لابن حجر(ج13/ 267).
([7]) حجة الله البالغة.للدهلوي(ج2/ 333)
([8]) إعلام الموقعين. لابن القيم.
([9]) الفتاوى لابن تيمية.(ج4/ 157،158)
([10]) مجموع الفتاوى لابن تيمية.(ج4/ 54)

الجهاد في سبيل الله معلم تربوي

1 – حقيقة الجهاد في سبيل الله:

من الواجب على الأمة الإسلامية، إذا تأهَّلت لمهمة الخلافة والقيادة، أنْ تعملَ على إحياء رُوح الجهاد والفروسِيَّة في قلوب الشباب المسلم، وإيقاظ هذه الفريضة في قلوب الغافلين، وإحيائها بمفهومها الشرعي الصحيح الشامل، الذي يبدأ مِنْ طَلَبِ العلم النافع للمسلمين بَدْءًا بِطَلَب العلوم الشرعية، ثُمَّ بكل علم نافع في شتَّى مجالات الحياة البشرية، ثُمَّ الجهاد ببذل المال والصدقات، والزَّكَوَات في سبيل الله – تعالى – وإنشاء كل عمل يَخدم هذه الأُمَّة ويُؤهلها لمرحلة القيادة والخلافة الراشدة، ثُمَّ الاستعداد النفسي والبدني للجهاد في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة التوحيد والإسلام، والاستعداد العسكري المسلح لخوضِ المعارك، وفتح البلاد بنور الإسلام وعدله وسلامه.

فالجهادُ في سبيل الله لا يَعني سَفْكَ الدِّماء، ولا قتل الأبرياء بغَيْرِ حَق، كما يُصوره أعداء الإسلام؛ والحاقدون من المنافقين والعَلمانيِّين، ومَن سار على طريقتِهم باتِّهام الإسلام وأهله، وفريضة الجهاد بأنَّها نوعٌ من الإرهاب والتخويف للنَّيْلِ من الإسلام وأهله.

كلاَّ، إِنَّما حقيقة الجهاد إزاحةُ الظالمين والطُّغاة أنْ يَقِفُوا في وجه هذه الدَّعوة الإسلامية الخالدة، وأنْ يَمنعوا أُمَّةَ الهدى والنور من تبليغِ هذه الرِّسَالة للنَّاس، وإسماعهم لِمَا فيها من الحق والعدل والرَّحْمة، وفيها من معاني التحرير الرَّبَّاني للبشرية من ظلم الظَّالِمين، ومن جَوْرِ الحُكَّام والساسة الذين طالما قهروا الناسَ، وأخرسوا ألسنتَهم، وكمَّمُوا أفواهَهم عن قولِ كلمة الحق، ونُصرة المظلوم، وعن أنْ تستنشقَ نَسَائِمَ الإيمان والقرآن، والعدل والرَّحْمة، والمساواة بين العباد في تكاليف العُبُودية لله وحْدَه.

وإنَّ للجهاد في الإسلام لشرفًا ومكانة، يومَ أنْ تَخلَّت عنه الأمة الإسلامية ذَلَّت وضَعُفَت وهانت، ويومَ أن كان فيهم العَدْلُ والإسلام نَشَروا التوحيدَ وعقيدتَه الصَّافِيَة، وعَلَّموا الدُّنيا مبادئَ الهدى، وأقاموا دولةً على أركان القُوَّة والإيمان بالله - تعالى - ومكارم الأخلاق التي بعث بها النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم.

لقد تقدَّم الصحابة والتابعون بالجهاد، ففتحوا به بلادَ الدُّنيا شرقًا وغربًا، حتى وصلوا إلى الصين، ودخلوا بلادَ الأندلس، ودخلوا بلادَ السند والهند، ومع ذلك كانوا أحرصَ الناس على هداية الناس إلى نور الإسلام، لقد فتح الله عليهم خيرات الأرض وكنوزَها، يومَ أن كانوا أعِزَّةً بهذا الدين، وصدق القائل:

خَلَقَ اللهُ لِلْجِهَادِ رِجَالاً وَرِجَالاً لِقَصْعَةٍ وَثَرِيدِ

2 - فضل الجهاد في الكتاب والسنة والدعوة إليه:

والمتأمِّل في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يرى فيها دعوةً جليلة لبَذْلِ الأموال والأنفس للجهاد في سبيل الله - تعالى - فمن القرآن الكريم قوله - تعالى -: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216].

وقوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: 156 - 158].

وقوله – تعالى –: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: 169 – 170].

وقوله – تعالى –: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 74].

ومنها آياتٌ كثيرة جَعَلها الله – تعالى – في سورةٍ تَحُث على إحياء الجهاد في نفوس المؤمنين، والصبر والثبات في قتال الكافرين، ومن ذلك في سورة الأنفال قولُ الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 60] إلى قوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: 65]، وهذه سورة التوبة سورة الجهاد والبَراءة من الكافرين والمنافقين تَحُثُّ أهلَ الإيمان على الجهاد، وتُحذر من الإخلاد إلى زينة الحياة الدنيا، كما في قول الله – تبارك وتعالى – في قتال المشركين: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 14 – 15]، وقوله – تبارك وتعالى –: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: 29]، وقوله – تعالى –: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

وقوله – تعالى –: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 88 – 89]، وقوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ اللهَ

اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 111].

وقوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصف: 4]، وقوله – تعالى –: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: 18]، والقرآنُ فيه الكثير مِن مثْل هذه الآيات الجليلة، والمتأمِّل لسورة البقَرة، وآل عِمْران، والأنفال، والتَّوْبة، ومحمد، والأحزاب، والفتْح، والصَّف، وغيرها – يرى مدى اهتمام القرآن بإحياء هذه الفريضة، التي هي وسيلة كبيرة إلى تعبيد الناس لخالِقِهم – سبحانه وتعالى.

أمَّا الأحاديث النبويَّة في الجهاد، فهي كثيرةٌ ومُستفيضة في هذا الباب، وإليك بعض الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك:

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سَمِعت رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((والذي نفسي بيده، لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تطيبُ أنفسُهم بأنْ يتخلَّفوا عني، ولا أجدُ ما أحملهم عليه، ما تَخلَّفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوَدِدْت أنِّي أُقْتَل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أُقْتَل))؛ رواه البخاري ومسلم

وعن أبي هُريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((والذي نفسي بيده، لا يُكْلَم أحدٌ في سبيل الله – والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله – إلاَّ جاء يومَ القيامة، واللَّونُ لَوْنُ الدَّم، والرِّيحُ ريح المسك))؛ رواه البخاري ومسلم.

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – قال: "غاب عَمِّي أنس بن النضر عن قتالِ بدر، فقال: يا رسول الله، غِبْتُ عن أولِ قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن أشهدني الله قتالَ المشركين؛ لَيَرَيَنَّ

الله ما أصنع، فلمَّا كان يومُ أُحُدٍ، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إنِّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: أصحابه، وأَبْرَأُ إليك مِمَّا صنع هؤلاء؛ يعني: المشركين، ثُمَّ تقدَّم فاستقبله سعدُ بن معاذ، فقال: يا سعدُ بنُ معاذ، الجنَّةَ وربِّ النضر، إنِّي أجد ريحها من دون أُحُد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صَنَع، قال أنسٌ: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف أو طَعْنةً برمح أو رَمْيَةً بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ به المشركون، فما عرفه أَحَدٌ إلا أخته ببَنانه؛ قال أنس: كنا نرى، أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَّ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: 23]، إلى آخر الآية"؛ رواه البخاري.

وعن أم حارثة بن سراقة أنَّها أتت النبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقالت: يا نَبِيَّ الله، ألاَ تحدثني عن حارثة - وكان قُتِلَ يومَ بدر، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ - فإن كان في الجنة صبرتُ، وإن كان غير ذلك، اجتهدت عليه في البُكاء؟ قال: ((يا أُمَّ حارثة، إنَّها جنان في الجنة، وإنَّ ابنَك أصابَ الفِرْدَوْسَ الأعلى))؛ أخرجه البخاري.

وعن عبدالله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - أنَّ رَسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((واعلموا أنَّ الجنةَ تَحت ظلال السيوف))؛ أخرجه الشيخان وأبو داود.

وعن زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((مَن جَهَّزَ غازيًا في سبيل الله، فقد غزا، ومن خَلَفَ غازيًا في سبيل الله بِخَيْرٍ فقد غزا))؛ رواه البخاري ومسلم وأبو داود والتِّرمذي، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((من احتبس فَرَسًا في سبيل الله، إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعده، فإنَّ شبعه ورِيَّه وروثه وبوله في ميزانه يومَ القيامة))؛ رواه البخاري.

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قيل: يا رسول الله، ما يَعْدِلُ الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((لا تستطيعونه))، قال: فأعادوا عليه مرَّتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: ((لا تستطيعونه))، ثم قال: ((مَثَلُ المجاهد في سبيل الله، كمَثَلِ الصائم القائم القانت بآياتِ الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد))؛ أخرجه الستة إلاَّ أبا داود.

وعن ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنهُما – قال: سَمِعْت رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((عينان لا تَمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتتْ تَحْرُسُ في سبيل الله))؛ رواه التِّرمِذِي.

وعن سهل بن حُنيف – رَضِيَ اللهُ عَنهُ – أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((مَن سأل الله – تعالى – الشهادة بصِدقٍ بلَّغه الله منازلَ الشُّهداء، وإن مات على فراشه))؛ رواه الخمسة إلا البخاري.

وعن خريم بن فاتك قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((مَن أنفق نفقة في سبيل الله – تعالى – كتبتْ له بسبعمائة ضعف))؛ رواه الترمذي وحسنه والنسائي.

وعن أبي هريرة – رضي اللهُ عنه – قال: مَرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – بشعب فيه عُيَيْنَة من ماء عَذْبَة فأعجبته، فقال: لو اعتزلتُ الناسَ، فأقمت في هذا الشعب، فذَكَر ذلك لرسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فقال: ((لا تفعل، فإنَّ مُقامَ أحدِكم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألاَ تُحبون أنْ يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة؟ اغْزُوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فَوَاقَ ناقَةٍ، وجبت له الجنة))؛ رواه الترمذي.

وعن المقدامِ بنِ معدِي كَرِبَ قال: قال رسول – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((للشَّهيد عندَ الله ستُّ خصالٍ: يغفرُ لهُ في أوَّلِ دفعةٍ، ويرى مقعده من الجنَّةِ، ويُجارُ من عذابِ القبرِ، ويأمنُ من الفزعِ الأكبرِ، ويوضعُ على رأسهِ تاجُ الوقارِ، الياقُوتةُ منها خيرٌ من الدُّنيا

وما فيها، ويزوَّجُ اثنتينِ وسبعينَ زوجةً من الحورِ العينِ، ويشفَّعُ في سبعينَ من أقربائهِ))؛ رواه الترمذي وابن ماجه، وعن أنسٍ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((مَن طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه))؛ رواه مسلم.

وعن جابر بن عبدالله – رضي الله تعالى عنه – يقول: "لما قتل عبدالله بن عمرو بن حرام يومَ أحد، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((يا جابر، ألاَ أخبرك ما قال الله – عزَّ وجلَّ – لأبيك؟))، قلت: بلى، قال: ((ما كلم الله أحدًا إلاَّ من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحًا فقال: يا عبدي، تَمَنَّ عليَّ أعطك، قال: يا رب، تُحيِيني فأقتل فيك ثانية، قال: إنَّه سبق مني أنَّهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب، فأَبْلِغْ مَن وَرائي))، فأنزل الله – عزَّ وجل – هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا... ﴾ [آل عمران: 169] الآية كلها"؛ رواه ابن ماجه.

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهادَ، سَلَّطَ الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم))؛ رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وعن أنس – رضي الله عنه – قال: "انطلقَ رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأصحابُه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض))، قال عُمَيْرُ بن الحُمَام: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((ما يَحملك على قولك: بَخٍ بخ))، قال: لا والله يا رسول الله، إلاَّ رجاءَ أن أكون من أهلها، قال: ((فإنَّك من أهلها))، فأخرج تَمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنَّها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل؛ رواه مسلم.

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنَّه قال: ((مَن مات ولم يغزُ، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق))؛ رواه مسلم وأبو داود.

3 – أنواع الجهاد وصوره:

الجهاد له صور شتى من حيث العموم، كالجهاد بالنفس وبالمال وبطلب العلم؛ لأنَّه متعلق ببذل الجهد، أمَّا عند إطلاقه فهو يعني غالبًا الجهاد القتالي، والذي أكثر الله من ذكره في القرآن، وكما جاء أيضًا في نصوص السنة النبوية، وقد أشرنا إليها آنفًا.

أمَّا بالنسبة لأنواع الجهاد، فهو ينقسم قسمين: جهاد الطلب، وجهاد الدَّفع.

أمَّا جهاد الطلب فهو طلب المشركين.

وجهاد الدفع: هو دفع المشركين، يعني جهاد الدفع: أنْ يغزو المشركون المسلمين في بلادهم، فيجاهدهم المسلمون دفاعًا عن بلادهم.

وأمَّا جهاد الطلب فخلافه، ففي حديث بُرَيْدَة أنَّ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – كان إذا بعث سريةً وأمَّر عليها أميرًا، فأوصاه بخاصة نفسه ومن معه بأنْ يتقوا الله – عزَّ وجلَّ – إلى آخره، فهذا من جهاد الطلب.

لكن متى يشرع جهاد الطلب؟

نقول بأنَّ جهاد الطلب يشرع إذا كان هناك مَن يقف أمامَ الدَّعوة إلى الله – عزَّ وجلَّ – ويَحول دون تبليغ الإسلام، والنبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – كان يبعث مَن يُبلغ المسلمين، فإذا كان هناك أحد يَمتنع من الإسلام ونحو ذلك، أو يكون حائلاً دون تبليغ دعوة الإسلام، فإنه يُجَاهَد في هذه الحالة، وهذا هو جهاد الطَّلب، وقبل أن يُجَاهد، فهو يخير بين أمورٍ ثلاثة: إمَّا الإسلام، وإمَّا الجزية، وإما القتال.

وقد ذكر ابنُ القيم في "زاد المعاد": أنَّ الجهادَ أربعُ مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أنْ يُجاهدها على تعلُّم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاحَ لها، ولا سعادةَ في معاشِها ومَعادِها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أنْ يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلاَّ فمُجرد العلم بلا عمل إن لم يضرَّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أنْ يُجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدَّعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانيِّين، فإنَّ السلفَ مُجمِعون على أنَّ العالم لا يستحقُّ أنْ يُسمَّى رَبَّانِيًّا حتى يعرف الحقَّ ويعمل به ويعلمه. فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشُّبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]، فأخبر أنَّ إمامة الدين إنَّما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

مراتب جهاد الكفار والمنافقين:

وأمَّا جهاد الكفار والمنافقين، فأربعُ مراتـبَ: بالقلـب، واللسـان، والمـال، والـنفس، وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان.

جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات:

وأمَّا جهاد أرباب الظُّلم والبدع والمنكرات، فثلاثُ مراتب: الأولى: باليـد إذا قـدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه، فهذه ثلاثَ عَشْرَةَ مرتبـة مـن الجهـاد، و((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق))؛ رواه مسلم.

هذه بعضُ معالِمِ الجهاد في سبيل الله – تعالى – ولكنَّ الجهادَ القتاليَّ هذا مع العدو قـد يُفْرَض أحيانًا؛ لأنهـم دخلـوا ديـارَ المسـلمين عُنْـوَة، واقتحمـوا حُرمـاتِهم وأعراضِـهم، واستحلوا دماءَهم وأموالهم، فهذا النوعُ من الجهاد لا حاجةَ فيـه لأمـير، ولا أن يسـتأذن فيه؛ لأنَّه صار فرضَ عين على كُلِّ المسلمين في ذلك البلد، على قولِ كثير من أهل العلم.

أمَّا الخروج للجهاد والفتح والطلب فله شأن آخـر، ويكـون عـلى الأُمَّـة الإسـلامية عندما تؤهل للخلافة الراشدة أو الإمارة المسلمة، وتتملك الأمـة زمـامَ القيـادة والحركـة والدَّعوة، فهذا له شروطه وضوابطه، التي ينبغي الوقـوف عنـدها والفهـم لهـا، حتـى لا نَخلط المسائل، ونأتي بالضرر للأمة من حيث نريد النفع لها.

ومع ذلك: يَجب أن نتصدى اليومَ بما نستطيعه من وسائل المجاهدة لأعداء الله في كلِّ ديار الإسلام: ببيان حقيقة منهج الإسلام الحنيف، وقُـوَّة عقيدتِـه وأخلاقِـه وتشريعاتِـه، وصلاحيتها وسُمُوِّها في قيادة الناس والعالم كله من جديد، وأنْ نتصدَّى لهم بـنشر العلـم الشرعي، وَفْقَ مـنهج الكتـاب والسـنة الصـحيحة، ومـنهج السـلف الصـالح – علـيهم رضوان الله تعالى – وجمع الناس على ذلك.

وأن نُعْنَى بتربية الشباب المسلم على الفروسِيَّة والاستعداد للفتح الإسلامي والجهاد في سبيل الله تعالى.

وأنْ نرد شكوكهم وأباطيلَهم التي يريدون بها زعزعة الإسلام والشريعة في قلوب المسلمين، وأنْ نستخدمَ كلَّ متاحٍ ومُباح وَفْقَ منهج الله - تعالى - في نشر دعوة الإسلام، بمفهومها الصحيح الشمولي المتوازن، وأنْ نصبرَ على كيد الكافرين والمنافقين، حتى يأتِيَ وعد الله لنا بالنصر والتمكين: ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: 21]، ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: 173].

* * *

الفصل الثالث

إسلامنا

إفشاء السلام من شعائر الإسلام

إن إفشاء السلام معلم شرعي من شرائع الإسلام، ورابط إيماني من روابط الإيمان، وواجب اجتماعي من حقوق المسلمين على بعضهم، وفيه من الخير والحسنات ما جعله الشرع طريقًا إلى رضوان الله وجنته، وقد دلت على ذلك كثير من نصوص الوحيين الكتاب والسنة، كما أن إفشاء السلام من آداب الطريق الجلية التي تربط المسلم بأخيه المسلم، وتصير الناس كأنهم أمة واحدة يعرف بعضهم بعضاً ويحب بعضهم بعضاً.

وهنا أمور مهمة في باب إفشاء السلام لا بد من الإشارة إليها:

أولًا: الأمر بإفشاء السلام وبيان فضله:

لقد أمر الله تعالى في كتابه بإفشاء السلام، وحث عليه، ورغب فيه، كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهَا" [النور: 27]. وقال تعالى: "فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" [النور: 61]. وقال تعالى: "وَإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنها أَوْ رُدُّوها" [النساء: 86]. وقال تعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهيمَ الْمُكَرَمِينَ، إذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فقالوا: سَلاماً، قال: سَلامٌ" [الذاريات: 24، 25].

كما جعل النبي – صلى الله عليه وسلم – إفشاء السلام من علامات الخيرية في إسلام العبد، كما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أن رجلاً سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: أي الإسلام خيرٌ؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف". متفقٌ عليه.

كما جعل إفشاء السلام حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم إذا لقيه، كما جاء عن عن أبي عمارة البراء بن عازب – رضي الله عنهما – قال: أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسبعٍ: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم. متفق عليه

كما أن إفشاء السلام طريق للمحبة والتآلف بين أفراد المجتمع المسلم، ونزع العداوات من القلوب، وعلامة على صحة إيمانه وتماسكه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم". رواه مسلم.

كما أن إفشاء السلام من أقرب الطرق الموصلة إلى جنة الله تعالى في الآخرة ورضوانه، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن سلامٍ – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلامٍ". رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

كما أن إفشاء السلام فيه غيظ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتعظيم لشعائر الإسلام بإظهارها، كما في الحديث عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ما حسدتكم اليهود على شيء؛ ما حسدتكم على السلام والتأمين". رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة وأحمد.

فالسلام إذًا شعيرة جليلة، نسارع إليها، ونلهج بها في شوارعنا وطرقاتنا، وكيف لا والله تعالى سمى نفسه السلام كما قال تعالى: "هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الحشر: 23].

وكيف لا والجنة هي دار السلام كما قال تعالى: "لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الأنعام: 127].

وكيف لا وتحية الله لأوليائه في الآخرة هي السلام كما قال تعالى: "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا" [الأحزاب: 44].

وكيف لا وتحية أهل الجنة والملائكة فيها هي السلام كما قال تعالى: "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [يونس: 10]. "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" [الرعد:: 23،24].

وكيف لا والملائكة الكرام تتلقى المتقين عند الموت بالسلام كما قال تعالى: "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [النحل: 32].

ولهذا من الواجب على المجتمع المسلم وأفراده المحافظة على إحياء هذه الشعيرة في النفوس، وتذكير الناس بها، حتى لا تندثر من أخلاق المسلمين وشوارعهم.

ثانيًا: كيفية السلام وآدابه:

وقد شرع الإسلام لشعيرة إفشاء السلام صيغة معينة، وآدابًا جليلة، فمن ذلك:

أن تحية الإسلام هي السلام، بأن يقول المسلم للمسلم إذا لقيه: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ورتب عليها الأجر والثواب الحسن عند الله تعالى، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يستحب أن يقول المبتديء بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فيأتي بضمير الجمع، وإن كان المسلم عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم".

ود دل على ذلك ما جاء عن عمران بن الحصين – رضي الله عنهما – قال: جاء رجلٌ إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"عشرٌ" ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: "عشرون" ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: "ثلاثون". رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أبي جري الهجيمي – رضي الله عنه – قال: أتيت رسول – صلى الله عليه وسلم –، فقلت: عليك السلام يا رسول الله. قال: "لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى". رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح

فهذه التحية جاء بها الإسلام تفرداً وتميزاً عن تحايا الجاهلية التي كان العرب يستعملونها، فيقولون: عم صباحاً أو عم مساء أو صباح الخير ومساء الخير وما أشبه ذلك، ولا يزال عند بعض الناس شيئاً منها إلى اليوم، أو تقليداً لغير المسلمين من الغرب أو الشرق، ويتكلمون بغير لغة العرب ولغة المسلمين، ولهذا لا ينبغي أن نستبدلها بغيرها لأنها من الله السلام ،وهي تحية الأنبياء والمرسلين، كما أنها تحية أهل الجنة في يوم يفوزون فيه بالنعيم المقيم، فيكف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونسير في ركب التقليد الأعمى بلا علم ولا هدىً ولا بصيرة.

ومن آدابه كذلك: ألا نقصر فيها لأننا نرى بعض إخواننا لا يلقون السلام إلا معرفة فحسب فإن عرف الرجل ألقى عليه السلام، وإلا فلا يسلم عليه، وهذا عيب وخلل في المجتمع المسلم لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر أن نسلم على من نعرف ومن لا نعرف من المسلمين، لكن لا نسلم على أهل الكتاب ولا نبدأ بذلك معهم، لأنه خلاف النهي عن السلام على أهل الكتاب الذي أمر به النبي – صلى الله عليه وسلم –: "لا تبدؤوا أهل الكتاب بالسلام"، ولأن للمسلم من الحق ما ليس لغيره.

ومن آدابه كذلك: ما جاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير" متفقٌ عليه. وفي روايةٍ للبخاري: والصغير على الكبير.

ومن آدابه كذلك: ما رواه الترمذي عن أبي أمامة – رضي الله عنه –: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام ؟ قال: "أولاهما بالله تعالى". قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ.

ومن آدابه كذلك: استحباب تكرار السلام وإعادته كما كان فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ففي الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "إذا لقي أحدكم أخاه، فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرةٌ، أو جدارٌ، أو حجرٌ، ثم لقيه، فليسلم عليه".واه أبو داود.

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم –: إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً. رواه البخاري. قال النووي رحمه الله: "وهذا محمولٌ على ما إذا كان الجمع كثيراً".

ومن آدابه كذلك: جواز السلام على الصبيان إذا لقيهم المسلم، كما جاء في الحديث عن أنس – رضي الله عنه – أنه مر على صبيانٍ، فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفعله. متفقٌ عليه.

ومن آدابه كذلك: كما قال النووي رحمه الله استحباب السلام إذا قام من المجلس فارق جلساءه أو جليسه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة". رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن.

ومن آدابه كذلك: السلام إذا دخل المرء بيته، أو بيت غيره، كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهَا" [النور: 27]. وقال تعالى: "فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" [النور: 61].

إذًا من الواجب علينا أن نعلم أن شعيرة السلام، إنما شرعت لربط الأمة الإسلامية ببعضها فهي روح تسري فيها ليعم سلامها وأمنها على من حولهم من الأمم ، وإلا فالإسلام ليس فيه ما يشرع لغير حكمة ولا غاية،وأجل الحكم وأفضلها على الإطلاق حسن السمع والطاعة لله ورسوله.

* * *

من علامات الإيمان الصادق

وقفة إيمانية تربوية للمجتمع المسلم، مع حديث متفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: **"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت"**. وفي رواية لمسلم: "فليحسن إلى جاره". وفي رواية: بدل "الجار" "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه".

فهذا نص نبوي جامع، جمع فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – بعضًا من علامات الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر، ودلل بها على كمال الإيمان عند صاحبها، وجعلها من شرائع الإسلام العظيمة، وحث عليها، ورغب فيها.

ويمكن إيجاز هذه العلامات الإيمانية الواردة في الحديث فيما يلي:

الأولى: إكرام الضيف والإحسان إليه.

الثانية: إكرام الجار والإحسان إليه.

الثالثة: قول الخير أو السكوت عما لا ينفع.

الرابعة: صلة الأرحام.

وبالتأمل في جل هذه العلامات، نرى أنها تدور في الجانب الاجتماعي بين الناس، وحسن إقامة العلاقة بينهم على الإكرام والإحسان، وصلة الأرحام الواجبة، والكف عن كل قول يؤذي المسلم من غيبة أو نميمة أو سخرية، والسعي لإيجاد الروابط الإيمانية والشرعية الصحيحة بينهم.

فإكرام الضيف والإحسان إليه، وإعطائه حق الضيافة من كمال الإيمان، ولنا الأسوة الحسنة في هذا في أبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – كما قال تعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ" [الذاريات: 24-26].

وكذلك الإحسان إلى الجار، وكف الأذي عنه، وذلك يكون بالقيام بحقوقه الواجبة، والتي دلت عليها نصوص أخرى كما جاء عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة؛ فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك". رواه مسلم. وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن" قيل: من يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه". متفق عليه.

وكذلك قول الخير، الذي فيه نفع لصاحبه أو لغيره؛ كالذكر والتسبيح، وتلاوة القرآن، وتعليم العلم النافع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الضال، وبذل النصيحة للمسلمين، أما ما عدا ذلك وما لم يكن له فيه الخير، فالواجب عندها على المسلم أن يلزم الصمت، وعدم الكلام، وذلك من مثل قول الباطل، وشهادة الزور، والكذب، والغناء، والغيبة، والنميمة، فكل هذا فيه مفسدة عظيمة للمسلم ولمن حوله، فيجب عليه صيانة لسانه، ومراعاة تقوى الله تعالى فيه كما قال تعالى في كتابه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 70،71].

وكذلك من كمال الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر صلة الأرحام، والتواصل بين الأقارب، فإنها من العلامات الدالة على تماسك المجتمع المسلم وقوته، وسلامته من القطيعة والتفكك، وقد جعل الله تعالى هذه القطيعة من دلائل الفساد في الأرض، ومن

صفات المفسدين كما قال تعالى: "الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" [البقرة: 27]، وقال تعالى: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ" [محمد: 22،23].

وكما أن صلة الأرحام من الأسباب المؤلفة بين المجتمع، فهي كذلك من الأسباب الجالبة للأرزاق كما جاء في الحديث قوله – صلى الله عليه وسلم –: "من أحب أن ينسأ له في أجله، ويوسع له في رزقه، فليصل رحمه". رواه البخاري

ونحن إذا تأملنا في واقعنا بعد هذا، وجدنا أن جل المسلمين اليوم وقع في التقصير العام في هذه الواجبات الإيمانية والاجتماعية، أو بعضها، فصرنا نرى كثيرًا ممن لا يقومون بحق الضيف وإكرامه غاية الكرم، ويبخلون عليه خشية الفقر والحاجة.

ولا من يقوم بحق الجار عليه، وكف الأذى عنه، وحسبنا رفع البنيان عليه من دونه إذنه، وكف الهواء عنه، وإزعاجه في الليل والنهار بأصوات الأجهزة الصوتية الصاخبة، بأصوات الغناء والمزامير.

كما وجدنا كثيرًا من آكلي لحوم الناس بالباطل بالغيبة والبهتان، وحديث المجالس والوظائف الفارغة، والتي تعج بكثير من المآسي والمعضلات، ومن خروج أخص متعلقات الرجل بزوجته، والحديث عن أسرار بيته وغرفته، وكذلك ما آل إليه الحال في جل صحافتنا وإعلامنا، المقروءة والمرئية، والمسموعة، والتي جمعت كثيرًا من الغثاء الساقط، وما لا قيمة له، في أكثر برامجها ونشراتها.

كما وجدنا في مجتمعنا المسلم، من لا يوقرون للأرحام مكانًا، ولا يصلونهم، ولا يتزاورون معهم، ولا يقفون في الشدائد إلى جوارهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

فهل سنقف وقفة أخرى من جديد مع هذا التوجيه النبوي العظيم! وهل ستعود لبنات المجتمع المسلم كما ينبغي! وهل سيملأ الإيمان واليقين قلوبنا بأن بذلنا وعطائنا وإكرامنا للناس لن يضيع عند الله تعالى! كما قال سبحانه: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" [الكهف: 30].

* * *

آداب الطريق في الإسلام

الإسلام شرع لنا كثيراً من الآداب السامية، والأخلاق العالية، ما يصون به بشرية الإنسان، وإنسانية البشرية، حيث يسموا به إلى آفاق عاليه من الأدب والخلق، ليكون هذا الإنسان أهلاً للتكريم والسمو ، ورفع مكانته ودرجته على سائر المخلوقات، والطريق الذي يسير الناس فيه شرع الإسلام له آداباً سامية، تجعل العبد المسلم يرتقي عن كونه مخلوقاً عادياً يسير في الطريق كما تسير سائر المخلوقات والحيوانات، أو كما يسير غيره من البشر لكن على غير هدىً ولا هداية توصله بخالقه سبحانه وتعالى..

والإنسان اجتماعي بفطرته أو كما قال وأشار ابن خلدون في مقدمته "مدني بطبعه"،.. يحب الألفة والاجتماع والملاقاة والتعاون والأخذ والعطاء والبيع والشراء، ومن هنا جاءت شريعة الإسلام تضبط هذه العلاقات والمعاملات حتى والإنسان يسير مع الخلق في طريقه إلى عمله وشؤونه ومصالح معاشه ومعاده.

فقد روى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما:عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ("إياكم والجلوس في الطرقات" فقالوا: يا رسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله. قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر".)

*** ففي هذا الحديث عدة وقفات وآداب إسلامية نبوية سامية:**

1- نجد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بدأ هنا في كلامه المبارك بصورة المحب المشفق المحذر لقومه مما يأخذهم إلى شيء من المحاذير والمحرمات فبدأ بقوله – صلى الله عليه وسلم –: "إياكم والجلوس في الطرقات"، فهو تحذير فيه من الشدة والحرص على من يحذره وفي ذات الوقت فيه من الحب والشفقة عليهم ما فيه من بيانه وتحذيره.

2- كما أن فيه من الحب والمؤانسة للمحذر، وفيه من الحوار والتلاطف بالحديث الشيء الكثير حيث نرى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بدأ معهم بأسلوب دعوي حواري جليل، لأن الداعية ليس مجرد مبلغ لما معه من العلم والحرص والتحذير والتبشير كذلك فحسب، إنما هو مرب ومعلم وبشر يحب الكلام والحوار الذي يأنس ويؤنس به كغيره من سائر الناس ، وهذه فائدة جليلة لكل داعية إلى الله تعالى.

3- وفي رد الصحابة – رضي الله عنهم – على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، بيان وتأكيد على بشرية الإنسان وأنه قد يلزم كثيراً بعادات ومعاملات لا يستطيع الفكاك منها، ولا العدول عنها، وهذه مراعاة لفطرة الإنسان وما جبل عليه، ومن هنا فالإنسان مدني بطبعه وفطرته، ولهذا قالوا :"مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها" ،فما صادم فطرتهم ولكنه أخذ يقوم فيها ويعدل ويربي ويعلم حتى لا تنحرف المجالس عن مسارها الصحيح، فيزل المجتمع بأفراده إلى ما لا يحمد عاقبته، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله.قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر".

4- ومن هنا أخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم ويقوم هذه المجالس والطرق حتى لا تنحرف بهم إلى شئ من الوقوع في المحرمات والمناهي التي تنعكس على

المجتمع فيكون الفساد والانحراف الذي يفسده ويهدمه ومن هنا وضع النبي – صلى الله عليه وسلم – عدة آداب جاء بعضها في أحاديث أخرى.

ولكن حسبنا أن نقف سريعاً مع هذا الحديث النبوي في آداب الطريق ومجالسه:

1- **غض البصر**: وهذا الأدب النبوي بغض البصر عن المسلمين والناس في سيرهم وغدوهم ورواحهم في الطريق، أدب رفيع في سموه، وسام في رفعته، حيث أن المسلم لا يتطلع إلى عورات الناس ومحارهم، من الرجال كانوا أو من النساء، ولا يتطلع كذلك ببصره ونظراته إليهم وإلى ما عندهم من المتاع والأغراض الخاصة بهم.

فالمسلم أولاً إن جلس في الطريق أو مشى فليراع حرمة غيره ، فلا ينظر إلى النساء من غير حاجة أجاز الشرع النظر لأجلها، ممتثلاً قوله تعالى: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم" ، ... وقوله" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن"، وكذلك النساء مع الرجال، لأن تعدي حدود الله تعالى في مسألة النظر تفضي بالعبد إلى الفتنة وما وراءها من الوقوع في المحرمات أو الزنا عياذاً بالله تعالى، فلهذا نهى عن إطلاق البصر من غير ضرورة أو حاجة، ولما خالف اليوم بعض المسلمين هذا الأدب النبوي رأينا المعاكسات والكلام البذيء للنساء والرجال هنا وهنالك، بل ووقعت حالات من الاغتصاب للنساء والفتيات بسبب ذلك نسأل الله السلامة والعافية.

والوجه الآخر من غض البصر: أن يتحفظ المسلم عن التطلع إلى متاع وأغراض الناس والتدخل في شؤونهم، فإن كان الناظر فقيراً طمع ولم يتعفف، وإن كان غنياً لم يقنع بما رزق، وأقل أحواله أن يقطع أوقاته في فضول النظر والكلام فيما لا يعنيه من شؤون الناس وهذا أيضاً منهي عنه لما فيه من المفاسد على قلبه وغيره، ولهذا أمر النبي – صلى الله

عليه وسلم – بغض البصر، وابن القيم رحمه الله تعالى أشار إلى عدة فوائد جليلة في غض البصر في كتاب إغاثة "اللهفان من مصايد الشيطان" فتراجع في مكانها.

2- **كف الأذى**: لأن المسلم لا يؤذى غيره ولا يتعدى عليه بكلام أو بإشارة أو همز ولمز أو بضرب وسباب وقتل، كل ذلك لا يقع إلا ممن لا يعرف للدين ولا للناس أدباً ولا خلقاً، فالمسلم متعفف عن الوقوع في الحرام والأذي لغيره فلا يغتاب الناس وهم يمرون عليه في الطريق ولا يلمز فلاناً او فلانة ، ولا يسب ولا يشتم لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:" ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ"، فلا يصح ممن يجلس في طريق الناس أن يؤذى أحداً بشيء من ذلك أو ينم بينه وبين غيره،فيوقع الناس في الفتنة وربما أفضى ذلك إلى القتل أحياناً وهذا مشاهد في زماننا هذا.

وكم نسمع من سباب وشتم لا يجوز شرعاً ولا خلقاً للناس بل ولدين الله تعالى من كثير من السفهاء، فلا يتورع أحدهم من السب والشتم، وهذا أمر يدل حقاً على فساد في الفطرة ... وتميع في شخصية المسلم.

3- **رد السلام**: وهذا من آداب الطريق الجلية التي تربط المسلم بأخيه المسلم ، وتصير الناس كأنهم أمة واحدة يعرف بعضهم بعضاً ويحب بعضهم بعضاً .

وهنا أمور لا بد من الإشارة إليها:

منها: أن تحية الإسلام هي السلام أن يقول المسلم للمسلم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ورتب عليها الأجر والثواب الحسن عند الله تعالى، وهذه جاء بها الإسلام تفرداً وتميزاً عن تحايا الجاهلية التي كان العرب يستعملونها، فيقولون: عم صباحاً أو عم مساء أو صباح الخير ومساء الخير وما أشبه ذلك، ولا يزال عند بعض الناس شيئاً منها إلى اليوم أو تقليداً لغير المسلمين من الغرب أو الشرق، ويتكلمون بغير لغة العرب ولغة المسلمين ،... ولهذا لا ينبغي أن نستبدلها بغيرها لأنها من الله السلام وهي تحية الأنبياء والمرسلين

كما أنها تحية أهل الجنة في يوم يفوزون فيه بالنعيم المقيم، فيكف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونسير في ركب التقليد الأعمى بلا علم ولا هدىً ولا بصيرة.

ومنها: ألا نقصر فيها لأننا نرى بعض إخواننا لا يلقون السلام إلا معرفة فحسب فإن عرف الرجل ألقى عليه السلام، وإلا فلا يسلم عليه، وهذا عيب وخلل في المجتمع المسلم لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر أن نسلم على من نعرف ومن لا نعرف من المسلمين، لكن لا نسلم على أهل الكتاب ولا نبدأ بذلك معهم، لأنه خلاف النهي عن السلام على أهل الكتاب الذي أمر به النبي – صلى الله عليه وسلم –: " لا تبدؤوا أهل الكتاب بالسلام"، ولأن للمسلم من الحق ما ليس لغيره.

ومنها: أن السلام إنما شرع لربط الأمة الإسلامية ببعضها فهو روح تسري فيها ليعم سلامها وأمنها على من حولهم من الأمم ، وإلا فالإسلام ليس فيه ما يشرع لغير حكمة ولا غاية،وأجلها على الإطلاق حسن السمع والطاعة لله ورسوله.

4- **الأمر بالمعروف**: لأن المعروف دلالة على كل خير، وإرشاد لكل بر، والمعروف هو كل ما أمر الله تعالى به ورسوله – صلى الله عليه وسلم – من الخير والبر والتقوى، فالمسلم في طريقه لا يكون إمعة لا يدل الناس على الخير وما فيه الصلاح والهداية لهم، وإنما يرشد ويعلم ويحث الناس عليه، فإذا وجد مسجداً يحتاج إلى تمام بناء أو ما شابه ذلك حثهم وأمرهم بالصدقة ، أو إذا وجد فقيراً محتاجاً أو مريضاً أو كبير السن فإنه يأمرهم بذلك الخير وإن استطاع هو فليكن أول فاعل لذلك الخير ليكون قدوة للناس وإماما لهم إلى الجنة ورضوان الله تعالى، لأن الأمر بالمعروف من أجل فرائض الإسلام التي تناسها كثير من الناس اليوم إلا من رحم الله تعالى، فبها قام الإسلام ، وهي خيرية هذه الأمة دون غيرها من الأمم " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ".

5- **النهي عن المنكر**: والمنكر والمحرم كل نهي نهانا عنه الله ورسوله ، وجاءت الشريعة بتحريمه والوعيد عليه، وكما قلنا أننا جميعاً في سفينة واحدة فإن غرقت غرق الجميع، فالمسلم ليس بالفاقد للبصيرة ، وليس بالمتغابي عن الواجبات والمنكرات والحرمات، يهز كتفيه للمنكر ثم يقول أمر لا يعنيني فلم أتدخل فيه، هذا ولا ريب نوع من السلبية القاتلة التي يكون آخرها عقاب وغضب من الله تعالى ، ولن يلحق شخص بعينه بل على كل المجتمع يقع العقاب، وترك النهى عن الشيء المنكر والمحرم من أنقص صفات بني إسرائيل التي ذكرها الله تعالى لنا في القرآن، حتى نأخذ الدرس والعبرة منهم "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" .

إن المجتمع الغربي والأوربي وغيره من المجتمعات الكافرة، لا تلتفت كثيراً إلى شئ من هذه المنكرات أو تعبأ بوقوعها، إلا فيما كان عائداً لهم بشئ من مصالح الدنيا الفانية الرخيصة، فهم لا ينكرون منكراً ولا يعرفون معروفاً إلا بقايا ورثوها وتناسوها على طول الزمان، فجل شوارعهم تحولت إلى دور سينما، وملاهي ليلية ، ذات اليمين وذات الشمال، ومواقعة للفاحشة اللهم إلا خشية ملاحقة القانون الذي لا يردعهم ولا يهذب نفوسهم وأخلاقهم.

وطرقات المسلمين اليوم قد وقعت فيها كثير من مخالفات الشريعة وتعدي حرمات الله تعالى من الغش في البيع والشراء ، والظلم ، وتبرج النساء والعري والتهتك المائع الرخيص ، وانتشار المقاهي ودور السينما وعلوا الأصوات بالغناء والفحش من القول والبذيء منه.. وغير ذلك ، فالمسلمون يجب عليهم في حياتهم عامة، وفي طرقهم خاصة النهي عن كل ما يغضب الله تعالى، ويخالف شريعته وكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وألا يشارك الناس بعضهم بعضاً في معاصيهم ومحرماتهم.

بل الواجب على المسلم أن ينهي ويأمر ويرشد ويعلم.. ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة والأسلوب المهذب المقبول للنفوس، حتى لا يفسد من حيث يريد الإصلاح، أو يهدم من حيث يريد البناء، فالأمر بالمعروف إنما يكون بالمعروف ، والنهي عن المنكر إنما يكون بغير منكر ،وهذا أمر جاء به القرآن وجاءت به السنة النبوية ويحتاج إلى مزيد بيان وبسط في موضع آخر، والحديث جمع آداباً جليلة حقاً لو استقام المسلمون عليها لرأينا مجتمعاً راقياً في أخلاقه ، عالياً في آدابه ، آمنا في معاملاته، لأنه أقام شريعة الله تعالى فيما أراد الله له.

ولكن حسبنا هنا هذه الوقفات السريعة مع آداب النبوة في طريق الناس حتى يسموا المجتمع إلى آفاق عالية من الآداب والأخلاق والمدينة الفاضلة.

* * *

آداب من السنة النبوية

لا ريب أن المحافظة على سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – من أجل الفرائض الشرعية الإسلامية، والتي ينبغي على المسلم أن ينقاد لها ويسلم ويذعن ، إذ أن نجاة العبد في متابعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وملازمة سنته والسير على هديه ومنهاجه كما قال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء:80).

وقال تعالى: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله" (الحشر:7)، إلى غير ذلك من الآيات..

ولنقف على شيء من هذا الباب الماتع في بيان فضيلة ملازمة المسلم للسنة وآدابها ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به من الشرع، حتى نقف على شيء من فضل هذه المتابعة، وذلك من خلال بيان بعض السنن النبوية.

أولًا: تسوية الصفوف في الصلاة:

عن أبي عبد اللهَّ النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ قال سمعت رَسُول اللهَّ – صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم – يقول: **"لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفن اللهَّ بين وجوهكم"** متفق عَلَيْهِ.

وفي رواية لمسلم: كان رَسُول اللهَّ – صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم – يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى **رأى أنا قد عقلنا عنه. ثم خرج يوماً فقام حتى كاد أن يكبر فرأى رجلاً بادياً صدره فقال: "عباد اللهَّ لتسون صفوفكم أو ليخالفن اللهَّ بين وجوهكم".**

الصلاة أجل أعمال الإسلام عند الله تعالى فهي ميزان لقبول أو رد سائر الأعمال عند الله تعالى، ومن هنا جاءت شريعة الإسلام تعظم شأنها ومكانتها، حتى أن العبد إذا توجه في صلاته إلى ربه تعالى، يكون في أجل وأفضل حالاته مع الله تعالى.

وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – هنا بتسوية الصفوف أمر له قدره ومكانته، لأننا أمة ليست ككل الأمم بل نحن أمة منظمة في جميع شؤون حياتها وعبادتها بهذا الشرع الحنيف، أمة لا تعرف الفوضى ولا الإهمال وهي تؤدي رسالتها وعبادتها ، ولهذا أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – الصحابة – رضي الله عنهم – بتسوية الصفوف في الصلاة لأنها أمة النظام، وأمة تعرف لله تعالى قدره فلا تقف أمامه وهي تعبده وتفرده بالدعاء والثناء وحده بلا ضابط ولا نظام يحكمها ، كلا بل هي على خلاف ذلك.

وتعليم النبي – صلى الله عليه وسلم – للصحابة تسوية الصفوف نوع جليل من تهيئة العبد لأن يكون أهلاً للوقوف بين يدي الله سبحانه، ليكون في أحسن صوره وحالاته من السكينة والاطمئنان، والخشوع والوقار.

وفيه أيضًا: تنبيه كبير للأئمة الذين هم قدوة للناس أن يقوموا برسالتهم على أكمل الوجوه وأحسنها خاصة في هذه العبادة الكبيرة حقاً بين يدي الله تعالى ، فالصلاة صلة توصل العبد بربه، وتشعره بالقرب والمعية والعون والهداية من الله تعالى له، فالواجب على أئمة المساجد الانتباه لهذا الأمر الذي قل أن يتنبهوا إليه فوقعت بسبب ذلك أخطاء كثيرة من عدم تنظيم الصفوف وتقدم البعض وتأخر الآخرين مما يخالف أدب الإسلام ونظامه وأخلاقه.

وفيه: تحذير للمخالفين للأدب العام في الصلاة حيث توعدهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، بأن يخالف الله بين قلوبهم ووجوههم إن لم تستقم منهم جوارحهم لله تعالى في عبادته، وهدي النبي – صلى الله عليه وسلم –كما جاء في كتب السنة في تسوية صفوف الصلاة معروف ومشهور ، حيث كان يمشي بين الصفوف ويعدلها بنفسه ويمسح على صدور أصحابه – رضي الله عنهم –، ويسوي الأقدام والمناكب والصدور منهم حتى كأنهم أسنان المشط الواحدة، وكان يقول: **"عباد اللهَّ لتسون صفوفكم أو ليخالفن اللهَّ بين وجوهكم"**، وكل هذا لأن العوج في الصفوف يتولد منه العوج والمخالفة في القلوب

فتحصل الفرقة والتشتت، وفي هذا تعليم من النبي صلى الله عليه وسلم أيما تعليم وتوجيه أيما توجيه.

وفيه أيضاً: دليل قوي على تلازم الظاهر والباطن وأن الظاهر ينعكس على باطن العبد ، وأن الباطن كذلك ينعكس على ظاهره، فالذي يحمل في قلبه الإيمان الصادق بالله تعالى، وحقيقة الحب والمتابعة للنبي – صلى الله عليه وسلم –، يظهر ذلك على ظاهره وجوارحه وعلى سلوكه وأخلاقه بقدر ما في قلبه من الحب والإيمان والمتابعة واليقين، وكذلك الأمر بضده من حيث أن من كان في ظاهره يظهر المتابعة والعمل والعبادة، فينعكس على قلبه بزيادة الإيمان في قلبه، ولهذا فإن العمل الصالح ولا ريب يزيد الإيمان في قلب العبد ، وكذلك وجود الإيمان في القلب تكون ثمرته ظاهرة في انقياد العبد للعمل الصالح وحب الخير للخلق والمتابعة لله والرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا: بيان في التلازم بين الظاهر والباطن، وأن المصلين إذا تخالفت وجوههم واستقامة صفوفهم وهذا أمر في الظاهر، انقلب ذلك على القلب بأن يبغض بعضهم بعضاً فتقع الفرقة والخلاف.

وهذه فائدة نفيسة تبين زيف الذين يزعمون محبة الله ورسوله، ثم هم لا تنقاد جوارحهم لإظهار السنة والشريعة على جوارحهم فتراهم يقصرون في عبادات في الظاهر وهم عليها قادرون، ومع ذلك يقولون المحبة والإيمان والمتابعة في القلب وليست في الجوارح الظاهرة.

وهذا تلبس كبير من الشيطان عليهم ، أو من متابعتهم لأهوائهم ومجاراة لغيرهم في إهمال السنن الظاهرة، وهذا نقص وخلل في حقيقة المتابعة والمحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن تأمل هذا الحديث النبوي وغيره ظهر له هذا التلازم الشديد، وأنه وإن كان الأصل في الأعمال الباطن أولاً.

لكن هذا لا يعني ترك الهدي الظاهر والسمت الظاهر للمسلم ، وإلا لو كان الأمر كذلك فلم نهى النبي – صلى الله عليه وسلم – عن التشبه بالكافرين في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وسائر العادات التي توقع المسلم في المشابهة لهم.

وكذلك النهي أن يشابه الرجل المرأة والمرأة الرجل، فلو كان الأمر لا تلازم فيه بينهما لما كان لأمره هنا أو هنالك من حكمة جلية تظهر آثارها على ظاهر العبد أو باطنه.

* * *

ثانيًا: إطفاء النار عند النوم:

ومن ذلك حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حدث رَسُول اللهِ – صلى الله عليه وسلم – بشأنهم قال: " إن هذه النار عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم" متفق عَلَيْهِ.

وهذا الحديث النبوي لنا معه عدة وقفات ودروس مهمة فمن ذلك ما يلي:

أولاً: رحمة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحرصه علينا:

ففي هذا الحديث بيان لرحمة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحرصه علينا، فالنبي صلى الله عليه وسلم أحرص الخلق على أمته، هداية وإيماناً ، وأمناً وسلامة، قال الله تعالى عنه:"بالمؤمنين رؤوف رحيم"، ولهذا لما أخبر بشأن هذا البيت الذي احترق في المدينة أرشدهم ووجههم وعلمهم أن يأخذوا حذرهم ، وأن يطفؤوا نارهم الموقدة عند النوم" إن هذه النار عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"، وفي هذا حرص على الأمة وسلامتها مما يقع بها من سوء أو ضرر، مما يدل على محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – لها وتعليمها ما يحفظ أمنها وسلامتها، وكيف لا وبعثته في ذاتها نجاة للبشرية من وعيد الله وعذابه

الأليم في النار يوم القيامة لمن آمن به وصدقه واتبع النور الذي جاء به:"الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.. الآية".

ثانياً: بيان خطر النار ووجوب الحظر من شرها:

وفي هذا الحديث بيان نبوي تحذيري من خطر النار وشدتها، لأن النار ولا ريب خطر ماحق، وشر محرق مهلك لو أمسكت شيئاً من المتاع أو حتى المخلوقات قل أن تنجوا وأن تسلم من شرها إلا ما رحم الله، وقد أمرت السنة كثيراً بأن يستعيذ العبد من شر النار وشر العذاب والجحيم فيها في دار الآخرة .

لأن الله تعالى توعد بالنار يوم القيامة أصحاب القلوب القاسية، وتوعد بها العصاة والكفار والمجرمين، الذين تعدوا حدود الله تعالى ومحارمه في هذه الدنيا، والذين لم يتبعوا كتبه ولا رسله عليهم السلام، وكفروا بهم وكذبوهم وآذوهم، توعدهم بالدخول فيها والعذاب الشديد عياذاً بالله تعالى والقرآن والسنة فيهما الكثير من هذا الوعيد والتحذير.

فالآيات والأحاديث في ذلك بينة واضحة فمن ذلك: قول الله تعالى:" وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ"(الزمر:60) وقوله تعالى:" وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ{71} قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{72}(الزمر:71،72) وقوله تعالى:" وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً"(الكهف:29).

وأما من السنة النبوية: فاستعاذة النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد التشهد من عذاب النار ومن عذاب القبر فعنْ أبي هُرَيْرة رضي اللهَّ عَنْهُ أنَّ رسُولَ اللهَّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ

وسَلَّم قَالَ : « إذا تَشَهَّد أَحدُكُمْ فَليسْتَعِذ بِاللهَّ مِنْ أَرْبَع ، يقولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عذَابِ جهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ القَبرِ، وَمِنْ فِتْنةِ المحْيَا والمَماتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيح الدَّجَّالِ » . رواه مسلم، وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهَّ عَنْهَا ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم كَانَ يَدعو بهؤُلاءِ الكَلِمَاتِ : «اللَّهُمَّ إِني أَعوذُ بِكَ مِن فِتنةِ النَّارِ ، وعَذَابِ النَّارِ ، وَمِن شَرِّ الغِنَى وَالفَقْر » ، رَوَاهُ أَبو داوَد ، والترمذيُّ وقال : حديث حسن صحيح ، وهذا لفظُ أَبي داود، وعَنْ أَنَسٍ رَضي اللهَّ عنْهُ ، قَالَ : كانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم : « اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وفي الآخِرةِ حَسنَةً ، وَقِنَا عَذابَ النَّارِ » مُتَّفَقٌ عليهِ .

ومن هنا فالنار إذا أحرقت لا تتوقف إلا نادراً وأنى لأحد أن يوقفها وأمرها بيد الله تعالى، فالواجب على كل مسلم الحذر منها ومن خطرها وشرها، فكم أحرقت من أناس وشردت من بيوت، وكم أكلت من أموال وتجارات، وكم تركت غابات رماداً يذروه الرياح، وكم وكم..، قال النووي رحمه الله تعالى: "هذا عام يدخل فيه نار السراج وغيره، وأما القناديل المعلقة فإن خيف بسببها حريق دخلت في ذلك، وإن حصل الأمن منها كما هو الغالب فلا بأس بها لانتفاء العلّة" انتهى.

فعلى المسلم أن يعلم هذا الأدب النبوي من سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأن يطفأ النار في بيته وأن يقوم بتعليم زوجته وأولاده هذا الهدي النبوي حتى لا تقع المخاطر ونحن في غفلة من أمرنا، ومن أمثال ذلك إطفاء آلة الكي والتدفئة والسخانات وما يشابها إذا خيف وقوع الضرر منها أما إذا أمن الضرر فنرجو ألا حرج على المسلم فيه ، ونسأل الله العصمة والسلامة.

ثالثاً: النوم آية من آيات الله فلنعتبر ولنأخذ حذرنا:

وفي الحديث بيان أيضاً لخطر الغفلة بالنوم وأن العبد لا بد له من سنة الغفلة والنوم، لأن الله تعالى جعل النوم آية من آياته في الليل خاصة، وجعله سباتاً وسكناً وراحة

للإنسان من عناء العمل والحياة وآلامها ومتاعبها أثناء السعي في النهار، كما قال تعالى في كتابه:" وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ "(الروم:23)، وكما قال تعالى:" وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً{9} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً{10} وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً{11}"(النبأ:9-11).

فإذا أصاب العبد النوم دخل معه الخمول والارتخاء والتكاسل فلا يدرك كثيراً ما يقع وما يدور حوله ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم"رفع القلم عن ثلاث..فذكر..وعن النائم حتى يستيقظ"، لأن النوم شبيه بالموت وأخ له ولهذا سمى بالموتة الصغرى وكما قال سبحانه يبين هذا المعنى في كتابه العزيز:" اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(الزمر:42).

ومن هنا يعتبر المسلم من كل وقت ينام فيه ليأخذ منه استعداده للدار الآخرة ، ويعلم كذلك قصر الحياة الدنيا، وآية الله تعالى وقدرته في النوم بينة بذلك.

وإن نوم الإنسان ويقظته كل يوم في حياته لدليل وبرهان من الله تعالى على البعث والإحياء لجميع الخلائق مرة أخرى يوم البعث والنشور ولهذا قرنه تعالى به بقوله تعالى:" اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"قال العلامة ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية من سورة الزمر: " يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: " اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا " وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: "قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُم" . "حَتَّى إِذَا جَاءَ

أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ" لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سببا.

وقوله: "وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا" وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، "فَيُمْسِكُ" من هاتين النفسين النفس "الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ" وهي نفس من كان مات، أو قضي أن يموت في منامه.

"وَيُرْسِلُ" النفس "الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف اللهّ فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع، فتتحادث، فيرسل اللهّ أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.". انتهى.

وكما أنه يعتبر للآخرة فليأخذه حذره في الدنيا عند منامه، فلا يغفل عن أسباب نجاته، والحذر مما يلحقه من سوء أو أذى، حتى يكون في مأمن من سوء العاقبة، ومما يعود عليه بالإفساد والضرر"فإذا نمتم فأطفئوها عنكم".

رابعاً: الحذر من الفأرة ونحوها من الفويسقات:

فقد جاء في بعض الروايات الأخرى في صحيح الجامع عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال :

جاءت فأرة فأخذت تجر الفتيلة فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الخمرة التي كان قاعداً عليها، فأحرقت منها مثل موضع الدرهم فقال: " إذا نمتم فأطفئوا سرجكم فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم".

فهذا الحديث يفيد أن الفأرة من المخلوقات الممقوتة، كما دل على أنها من جنود الشيطان الرجيم الذي يجر به الإفساد إلى بيوت المسلمين، وتأمل قوله – صلى الله عليه وسلم –: "فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم"، وكيف لا والفأرة من الفويسقات التي تقتل في الحل والحرم، فعلى المسلم الحذر منها، وتطهير البيت من شرورها، فكم أكلت من كتب علم وهداية، وكم أبلت من ملابس وكساء، وكم أفسدت من طعام، وكم أحرقت من بيوت، وتطهير البيت منها يجنب المسلم ذلك كله بأمر الله تعالى.

* * *

ثالثًا: الأكل باليمين:

عن أبي مسلم، وقيل: أبي إياس سلمة بن عمرو بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أن رجلاً أكل عند رَسُول اللهِ – صلى الله عليه وسلم – بشماله فقال: كل بيمينك قال: لا أستطيع. قال: لا استطعت!ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه". رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

في هذا الحديث يتبين لنا كمال التشريع النبوي الذي ما ترك شيئاً إلا علمنا إياه حتى طريقة تناول الطعام والأكل منه وبيان كيفية ذلك، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – مشرع لأمته ، يعلمهم ويرشدهم ويهديهم إلى ما فيه الخير والسعادة لهم، فكان من شفقته وتعليمه كذلك أن علم هذا الرجل الذي رآه يأكل من طعام، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – معلماً وموجهاً: كل بيمينك، قال ذلك لما رآه يأكل بالشمال ، لأن الأكل بالشمال من خصال عدوا الله ورسله وأوليائه إبليس الرجيم، وتبعه في ذلك جهلة العالمين من الكفار والمشركين والجهلة بآداب الشريعة.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم إرشاد الرجل إلى أصله فطرته، وأن التيامن في كل شئ خير وبركة لصاحبه، فقال له كل بيمينك ، لكن الرجل ما استجاب للنبي – صلى الله

عليه وسلم –، لما خالط نفسه وقلبه من الكبر والترفع على الأمر ، وأن أمثاله ليسوا في حاجة إلى موجه ومعلم يعلمهم ويرشدهم كيف يتجهون..؟ ولا كيف يأكلون ويشربون وكذلك كيف يلبسون..، وهذا كثير في الناس ، لا يحبون من يهديهم إلى الخير والسعادة ، ولا من يأخذ بأيديهم إلى الرشاد .

ذلك: أن الشيطان زين لهم أنهم فوق الأمر وأنهم أعز وأرفع من أن يوجهوا ويعلموا، وكذلك سولت لهم أنفسهم بجهلها بحقيقة هذا الدين وحقيقة متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الهدى والرشاد، فمثل هؤلاء لا يقلبون توجيهاً ولا أمراً ولا نهياً، ولهذا يكون أحياناً حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية ومسيرتها، لأنهم لم يذوقوا طعم الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا حلاوة المتابعة له مع أن الله قال لنا:" وإن تطيعوه تهتدوا" ، لكن أصحاب النفوس المستعلية على الأمر والمناصحة لا يقبلون ولا يتابعون، وهذا لا ريب نوع من متابعة الشيطان في عناده وكبريائه يوم أن تعالى وترفع كبراً على أن يكون ممن سجدوا لأبي البشرية المكرم آدم عليه السلام.

وهؤلاء واقعون في الفتنة مستشرفون لها كما قال تعالى: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم " ، ولهذا قال الرجل للنبي – صلى الله عليه وسلم –:لا أستطيع، ما منعه من ذلك إلا الكبر والتعالى على أمر النبي – صلى الله عليه وسلم –، فكان جزاء المخالفة معجلاً غير مؤجل: فما رفعها إلى فيه، لأنه وقع فيما حذر الله تعالى منه ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، وفي هذا درس وعبرة لكل متكبر على ملازمة سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، حتى لا ينالهم عقاب من الله تعالى، وكان وعداً مفعولاً.

* * *

وقفات مع الحج وفضائله من "رياض الصالحين"

إنَّ الحج إلى بيت الله الحرام، والقيامَ بمناسكه وآدابه مِن أجَلِّ العبادات والشعائر التي شرعها الله تعالى في كتابه، وفي سُنَّة رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وهذه وقفةٌ – بإذن الله تعالى – مع "كتاب الحجِّ وفضائله"؛ للإمام النووي – رحمه الله تعالى – من كتاب "رياض الصالحين"[1]؛ حيث إنَّه جمع فيه عددًا من النصوص الشرعية، مبيِّنًا بها فضيلة الحجّ في الإسلام، وكونه فريضة إسلامية عظيمة، يجب على المسلم القادر المستطيع السَّبْقُ إليها، والسَّعي إلى تحصيلها؛ لتحصيل الأجر والثواب عند الله تعالى، والقيام بشعيرة وركن عظيم مِن أركان الإسلام.

وهنا عدَّة نقاطٍ نقف عليها مِن خلال النصوص الشرعيَّة في بيان فريضة الحج وفضائلها:

أولاً: الحجُّ فريضة إسلامية واجِبة:

المُتأمِّل في نصوص الوحْيَيْن مِنَ القرآن والسنة يتبيَّن له أن الحج إلى بيت الله الحرام فريضة إسلامية واجبة على كلِّ مسلم مكلَّف قادر عليها، متى ملك الزَّاد والراحلة، ومتى أمن الطريق إلى بيت الله الحرام، ومتى انتفتْ عنه الأعذار الشرعية، وهذه الفريضة تجب على المسلم مرة واحدة في العمر، ولا يكلَّف غيرها إلا أنْ يتطوَّع، وقد فرض الحج على قول كثير من أهل العلم في العام التاسع من الهجرة، والذي سُمِّي بعام الوفود، وقد ذهب إلى هذا ابن القيِّم – رحمه الله تعالى – وقد بيَّن الله تعالى حُكْم الوجوب في الحجِّ واستطاعته في كتابه وسُنَّة رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فقال تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96 - 97].

ففي هذه الآية دلالةٌ واضحة على وجوب الخروج للحجِّ والطواف بالبيت المبارك، متى استطاع المسلم ذلك، قال ابن كثير - رحمه الله -: "وقوله: ﴿ وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور، وقيل: بل هي قوله: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ ﴾ [البقرة: 196]، والأول أظهر، وقد ورَدَت الأحاديثُ المتعدِّدة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائِمه وقواعِده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًّا، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرَّة واحدة بالنص والإجماع"[2].

وقال القُرطبي - رحِمه الله -: "قوله تعالى: ﴿ وَللهِ ﴾ اللام في قوله: ﴿ وَللهِ ﴾ لام الإيجاب والإلزام، ثم أكَّدَه بقوله تعالى: ﴿ عَلَى ﴾ التي هي مِن أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العرَبِيُّ: لفلانٍ عليَّ كذا، فقد وكَّدَه وأوجبه، فذكر الله تعالى الحجَّ بأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيدًا لحقِّه، وتعظيمًا لحرمته، ولا خلاف في فريضته، وهو أحد قواعد الإسلام، وليس يجب إلا مرة في العمر"[3].

وعلى هذا أجمع أهل العلم من أهل السُّنة والجماعة، كما دلَّت على ذلك النُّصوص النبوية، ففي الصَّحيحين من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((بُنِيَ الإسلام على خمسٍ؛ شهادةِ أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ البيت))؛ متَّفَق عليه.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: خطَبَنا رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقال: ((يا أيُّها النَّاس، قد فرَضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا))، فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكَت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لو قلتُ: نعَم، لوجَبَت، ولما استطعتم)) ثم قال: ((ذَرُوني ما تركْتُكم؛فإنما هلك من كان

قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فَأْتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه))؛ رواه مسلمٌ.

أما من حيث القدرةُ والاستطاعة فقد ذكر الشَّوكاني - رحمه الله - كلامًا نفيسًا، فقال: "والظاهر أن من تمكَّن من الزاد، والراحلة، وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكَّن من مرورها، ولو بِمُصانَعة بعض الظَّلَمة بِدَفْع شيء من المال يتمكَّن منه الحاجُّ، ولا ينقص من زاده، ولا يجحف به، فالحج غير ساقط عنه، بل واجب عليه؛ لأنه قد استطاع السَّبيل بِدَفْع شيء من المال، ولكنه يكون هذا المال المدفوع في الطريق من جُمْلة ما تتوقَّف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زادًا، وراحلة، ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس في الطريق لم يجب عليه الحج؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلاً، وهذا لا بُدَّ منه، ولا يُنافي تفسير الاستطاعة بالزَّاد، والراحلة، فإنه قد تعذَّر المرور في طريق الحجِّ لمن وجد الزَّاد والراحلة إلاَّ بذلك القدر الذي يأخذه المكَّاسون، ولعلَّ وجْهَ قول الشافعي: إنَّه سقط الحج، أنَّ أخْذَ هذا المكس منكر، فلا يجب على الحاجِّ أن يَدْخل في منكر، وأنه بذلك غير مستطيع"[4].

وقد اختلف بعضُ أهل العلم في وجوب الحج على الفور أو على التَّراخي؟ والذي عليه جمهور أهل العلم كالمالكيَّة والحنفية والحنابلة أنَّ الحج واجبٌ على الفور متى تحقَّقَت الاستطاعة كلُّها، وذهب بعض الشافعية إلى أنَّه لا يجب وإن كان أولى، والصَّحيح أن الحجَّ أولى إذا تحقَّقَت الاستطاعة؛ فإن العبد لا يدري متى يموت، وقد تفوت عليه فريضة الحج وهو قادرٌ عليها اليوم، فيقع العجز غدًا؛ من مرض، وعُذْر، وضياعِ أَمْن.

* * *

ثانيًا: الحج لا يكون إلا لبيت الله الحرام بمكة:

وهذه مسألة مهمَّة ومستنبَطة من سياق النُّصوص في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ

دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96 - 97].

فقد دلَّت الآيتان على عدَّة أمور مهمة:

الأول: أن أوَّل بيت وُضِع للناس للعبادة، إنما هو الذي بمكة لا بغيرها من البلاد، وهذا عليه أكثر المفسِّرين، قال ابن كثير - رحمه الله -: "أوَّل بيت وُضع للناس؛ أيْ: لِعُموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾؛ يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل - عليه السَّلام"[5].

الثاني: أنَّ الله تعالى بارك في هذا البيت للعالَمِين، وذلك بوجود الأنبياء - عليهم السَّلام - فيه، وإقامة العبادة لله تعالى، وتحصيل المنافع والخيرات، قال البيضاوي - رحمه الله - في "أنوار التَّنْزيل": "كثير الخير والنَّفع لمن حجَّه واعتمَرَه، واعتكف دونَه، وطاف حولَه"[6].

وقال السَّعْديُّ - رحمه الله -: "فيه البرَكة الكثيرة في المنافع الدِّينية والدُّنيوية، كما قال تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج: 28]"[7].

الثالث: أنَّ الله تعالى جعل فيه آيات بيِّنات دالَّة على قدرته وحكمته، منها مَقام إبراهيم - عليه السَّلام - والصَّفا والمروة وغيرها، كما ذكر أهل التفسير.

الرابع: أن الله أمَر بتأمين أهله وقاصديه، فلا يتعرَّض أحدٌ لهم بِسُوء ولا أذًى ولا اعتداء.

الخامس: أن الله تعالى فرَضَ الحجَّ لهذا البيت الذي هو بمكَّة، فلا يصحُّ الحجُّ لأيِّ بقعة أخرى في الأرض سواه، وقد سمَّاه الله بقوله تعالى: ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾، وبقوله: ﴿ وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾، ولا ريب أنَّ البيت هو الذي ببكَّة، لا بغيرها.

السادس: أنَّ الله تعالى حكَمَ بالكُفْر على تارك هذه الفريضة، الجاحِدِ لها مع الاستطاعة والقدرة، وكذلك مَن جعَلَها في غير مكَّة وبيت الله الحرام؛ أيْ: الكعبة.

ومِن هذا نَأخذ فائدة جليلة، وهي: أن التَّوجُّه بعبادة الحجِّ والعمرة كذلك لغير مكَّة هو أمر مخالِفٌ لِحُكم الله ورسوله، فالذين يتوجَّهون بعبادتهم إلى أصحاب القبور والأولياء وغير ذلك، وقَعوا ولا ريب في صُوَر من الشِّرك بالله تعالى، وصرف العبادة لغيره، فالَّذين يَذْهَبون إلى قبر الحُسَين أو الشَّافعي، أو البدويِّ، أو يُعَظِّمون القبور والأضرحة من دون الله كما يفعل غُلاة الشِّيعة وجهَلَتُهم في كَرْبلاء والنَّجف وغيرهما، هؤلاء ولا ريب لَيْسُوا على منهاج النبوة في ذلك الأمر.

وكذلك ما يفعله بعض غُلاة المتصوِّفة، من الطواف بالقبر، والاستغاثة والاستِعانة والتوسُّل لطلب الحاجات من الميت، وطلب الشِّفاء والمدَدِ والغفران، والذَّبح والنَّذر لصاحب القبر، وهذا من أعظم الشِّرك عند الله تعالى، ويسمُّون هذا الفعل بالحجِّ عندهم، وقد نهَى النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - عن تعظيم قبره وعن اتِّخاذه عيدًا بِكَثْرة الزِّيارة والتعظيم المُفْرِط له، حتى لا يدبَّ الشِّرك إلى القلوب، فيقع فيها من المفاسد ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لعَن الله اليهود، اتَّخَذوا قبور أنبيائهم مساجد))؛ يُحَذِّر ما صنعوا؛ متفق عليه.

قال ابن القيِّم - رحمه الله - في "إغاثة اللَّهفان": "فمِن مفاسِدِ اتِّخاذها أعيادًا: الصَّلاة إليها، والطواف بها، وتَقْبِيلها واستلامها، وتعفير الخُدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النَّصر والرِّزق والعافية، وقضاء الدُّيون، وتفريج الكرُبات، وإغاثة اللَّهفان، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عُبَّاد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غُلاة المتَّخِذين لها عيدًا وقد نزلوا عن الأكوار والدوابِّ، إذا رأَوْها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجِبَاه وقَبَّلوا الأرض وكشفوا الرُّؤوس، وارتفعَتْ أصواتهم

بالضَّجيج، وتباكَوْا حتى تسمع لهم النَّشيج، ورأوا أنهم قد أَرْبَوا في الرِّبح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يُبْدي ولا يُعِيد، ونادَوْا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلَّوْا عند القبر ركعتين، ورأوا أنَّهم قد أحرزوا من الأَجْر ولا أجر من صلَّى إلى القِبْلتَيْن، فتراهم حول القبر رُكَّعًا سجَّدًا يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا، وقد مَلؤوا أَكُفَّهم خيبة وخسرانًا، فلِغَير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العَبَرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومُعافاة أُولِي العاهات، والبليَّات.

ثم انْثَنَوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مبارَكًا وهُدًى للعالمين، ثم أخذوا في التَّقبيل والاستلام، أرأيتَ الحجر الأسود وما يَفْعَل به وفْدُ البيت الحرام، ثم عفَّروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تُعَفَّر كذلك بين يديه في السجود.

ثم كمَّلوا مناسكَ حجِّ القبر بالتقصير هناك والحِلاق، واستمتعوا بِخَلاقهم من ذلك الوثَن؛ إذْ لم يكن لهم عند الله مِن خَلاق، وقرَّبوا لذلك الوثَنِ القرابين، وكانت صلاتُهم ونسُكُهم وقربانهم لغير الله ربِّ العالمين، فلو رأيتَهم يهنِّئ بعضهم بعضًا، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا، فإذا رجعوا سألَهم غُلاة المتخلِّفين أن يبيع أحَدُهم ثواب حجَّة القبر بحجِّ المتخلِّف إلى البيت الحرام، فيقول: لا ولو بِحَجِّك كلَّ عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكَيْناه عنهم، ولا استقصينا جميع بِدَعِهم وضلالهم؛ إذْ هي فوق ما يَخْطر بالبال، أو يدور في الخيال، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح، كما تقدَّم، وكل من شمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أنَّ مِن أهم الأمور سدَّ الذريعة إلى هذا المحظور"[8]؛ انتهى.

فالواجب إذًا؛ الحذَرُ من صَرْف العبادة لغير الله تعالى، وصرفها أيضًا في مكان غير ما شرع الله ورسوله؛ لأنَّ هذا يُفْضِي إلى صُوَر وأنواع من الشِّرك بالله تعالى، والتعدِّي على أمْرِه وشريعته، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 61 – 63].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: 64 – 66].

* * *

ثالثًا: من فضائل الحج:

من أُولى فضائل الحج إلى بيت الله الحرام أنَّه من أفضل الأعمال والقربات عند الله تعالى، ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سُئِل النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم –: أيُّ العمل أفضل؟ قال: ((إيمانٌ بالله ورسوله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)) قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حجٌّ مبرورٌ))؛ متَّفقٌ عليه، والمبرور كما قال النَّوويُّ هو: الذي لا يَرْتَكِب صاحبُه فيه معصيةً.

وهنا فائدة نفيسة للشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – حيث قال: "فالحجُّ المبرور هو الذي اجتمعَتْ فيه أمور:..

الأمر الثاني: أن يكون خالِصًا لله بأن لا يَحْمل الإنسانَ على الحجِّ إلاَّ ابتغاءُ رضوان الله والتقرُّب إليه – سبحانه وتعالى – لا يريد رياءً ولا سُمْعة، ولا أن يقول الناس: فلان حجَّ، وإنَّما يريد وَجْه الله.

الثالث: أن يكون الحجُّ على صفة حجِّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يعني أن يتَّبِع الإنسان فيه الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم - ما استطاع.

الرابع: أن يكون من مالٍ مُباح ليس حرامًا بألاَّ يكون رِبًا، ولا مِن غِشٍّ، ولا مِن مَيسِر، ولا غير ذلك من أنواع المَفاسد المُحرَّمة، بل يكون من مال حلال؛ ولهذا قال بعضُهم:

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحُتٌ فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتِ العِيرُ

يعني: الإِبَل حجَّتْ، أمَّا أنت فما حجَجْت! لماذا؟ لأنَّ مالَك حرام.

الخامس: أن يجتنب فيه الرَّفَث والفُسوق والجدال؛ لقول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: 197]، فيجتنب الرَّفث وهو الجِمَاع ودواعِيه، ويجتنب الفسوق سواء كان في القول المحرَّم؛ كالغيبة والنَّميمة والكذب، أو الفعل؛ كالنظر إلى النِّساء، وما أشبه ذلك، لا بُدَّ أن يكون قد تجَنَّب فيه الرفث والفسوق، والجدال: المجادلة والمُنَازعة بين الناس في الحجِّ، هذه تُنْقص الحجَّ كثيرًا.

اللَّهم إلاَّ جدالاً يُراد به إثبات الحقِّ وإبطال الباطل، فهذا واجبٌ، فلو جاء إنسان مبتدِع يجادل والإنسان مُحْرِم، فإنه لا يتركه، بل يجادله ويبيِّن الحق؛ لأنَّ الله أمر بذلك: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]، لكن الجدال من غير داعٍ، يتشاحنون أيّهم يتقدَّم، أو عند رمي الجمرات، أو عند المطار، أو ما أشبه ذلك، هذا كله مما ينقص الحج، فلا بُدَّ من تَرْك الجدال فالحجُّ المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة"[9]؛ انتهى.

ومن فضائل الحج أنه مكفِّر للذُّنوب والخطايا، فإذا حجَّ العبد راجيًا به وجْهَ الله تعالى، رجع وقد عَفا الله عنه، وأخرَجَه من ذنوبه وسيِّئاته كيَوْمِ وُلِد، ففي الحديث عن أبي

هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعتُ رسول الله– صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((من حجَّ، فلم يَرْفث، ولم يفسق، رجَع كيوم ولدَتْه أمُّه))؛ متَّفقٌ عليه.

ومن فضائله أنه طريق إلى الجنَّة ونعيمِها؛ ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله– صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((العُمْرة إلى العمرة كفَّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنة))؛ متَّفقٌ عليه.

ومِن فضائله أنَّه مِن أفضل الجهاد عند الله تعالى؛ ففي الحديث عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلتُ: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نُجاهد؟ فقال: ((لكن أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ))؛ رواه البخاري.

ومن فضائله أنَّ الوقوف بعرفةَ – وهو أعظم أركان الحجِّ – طريقٌ للعِتْق من النار، والنَّجاة من أهوالها يوم القيامة، ففي الحديث عن عائشة– رضي الله عنها – أن رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((ما مِن يومٍ أكثر مِن أن يُعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة))؛ رواه مسلمٌ.

ومن فضائله أنَّ القيام بالعمرة في شهر رمضان، تعدل عمرة أو حجَّة مع النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – ففي الحديث عن ابن عبَّاسٍ – رضي الله عنهما – أن النبيَّ– صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((عمرةٌ في رمضان تعدل حجَّةً))، أو ((حجةً معي))؛ متفقٌ عليه.

* * *

رابعًا: من مسائل الحج:

وهنا مسائل مهمَّة يحتاج الناس إليها في الحج وأدائه، فمن ذلك:

جواز الحجِّ عن الغير، والخروج لأداء المناسك عنه، ففي الحديث عن ابن عبَّاس – رضي الله عنهما –: أنَّ امرأةً قالت: يا رسول الله، إنَّ فريضة الله على عباده في الحج، أدركَتْ أبي شيخًا كبيرًا، لا يَثْبت على الراحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: ((نعم))؛ متَّفقٌ عليه.

وقد دلَّ الحديث على جواز الإنابة في الحجِّ ومناسكِه، كما دلَّ على جواز إنابة الرجل عن المرأة، والمرأة عن الرجل، فالكل في ذلك سواء، ولكن هذا الجواز متعلِّق بشرطين:

الأول: عجز المنيب عن الحجِّ عجزًا لا يستطيع معه الحجَّ، كالمرض الذي لا يُرْجَى شفاؤه، والكِبَر الذي لا حراك معه ولا استطاعة.

الثاني: أن يكون المُوَكَّل بالحجِّ قام بأدائه عن نفسه أوَّلاً، وإلا فلا يصحُّ فعله، على الصحيح من أقوال أهل العلم والفقه.

وقد دلَّ على ذلك أيضًا حديثُ لقيط بن عامرٍ – رضي الله عنه – أنه أتى النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – فقال: إنَّ أبي شيخٌ كبيرٌ لا يستطيع الحجَّ، ولا العمرة، ولا الظَّعن؟ قال: ((حُجَّ عن أبيك واعتمر))؛ رواه أبو داود، والتِّرمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

ومن المسائل المهمَّة جواز حجِّ الصَّبِي، وقبول ذلك منه، وكذلك الحج معه، ففي الحديث عن السَّائب بن يزيد – رضي الله عنه – قال: حُجَّ بي مع رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – في حجَّة الوداع، وأنا ابن سبع سنين؛ رواه البخاري.

وعن ابن عباسٍ – رضي الله عنهما – أن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – لقي ركبًا بالرَّوحاء، فقال: ((مَن القوم؟)) قالوا: المُسْلمون، قالوا: مَن أنت؟ قال: ((رسول الله))؛ فرفَعَت امرأةٌ صبيًّا، فقالت: أَلِهذا حجٌّ؟ قال: ((نعَم، ولَكِ أجرٌ))؛ رواه مسلمٌ.

قال النووي – رحمه الله –: "فيه حُجَّة للشافعي ومالكٍ وأحمد وجماهير العلماء أنَّ حجَّ الصبيِّ منعَقِدٌ صحيح، يُثاب عليه، وإن كان لا يَجْزِيه عن حجَّة الإسلام، بل يقع تطوُّعًا، وهذا الحديث صريح فيه.

وقال أبو حنيفة: لا يصحُّ حَجُّهُ، قال أصحابه: وإنما فعَلُوه تمرينًا له؛ ليعتاده، فيفعَله إذا بلغ، وهذا الحديث يردُّ عليهم.

قال القاضي: لا خِلاف بين العلماء في جواز الحجِّ بالصِّبيان، وإنما منَعَه طائفةٌ من أهل البِدَع، ولا يُلْتَفَت إلى قولهم، بل هو مردودٌ بِفِعْل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابِه، وإجماع الأُمَّة، وإنما خلاف أبي حنيفة في أنه هل ينعقد حَجُّه؟ وتجري عليه أحكام الحج، وتجب فيه الفدية، ودم الجبْران، وسائر أحكام البالغ؟

فأبو حنيفة يمنع ذلك كلَّه، ويقول: إنَّما يجب ذلك تمرينًا على التَّعليم، والجمهور يقولون: تجري عليه أحكام الحجِّ في ذلك، ويقولون: حجُّه منعقدٌ يقع نَفْلاً؛ لأنَّ النبي - صلى الله عليه وسلَّم - جعل له حجًّا.

قال القاضي: وأجمعوا على أنه لا يُجْزِئه إذابلغ عن فريضة الإسلام، إلاَّفرقة شذَّت فقالت: يُجْزئه، ولم تلتفت العلماء إلى قولها"[10].

والذي عليه القول أن حجَّه مقبول، ولكن لا يُجْزئه عن حجَّة الإسلام إذا بلغ، على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لحديث ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - أن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((أيُّما صَبِيٍّ حجَّ ثم بلغ، فعليه حجَّة أخرى))؛ رواه الشافعي، وصحَّحه الألباني في "إرواء الغليل".

ومنَ المسائل النافعة أيضًا جواز الاتِّجار بالبيع والشراء في موسم الحجِّ، والانتفاع بذلك؛ فإن هذا لا ينقص الحجَّ، ولا يؤثِّر في صِحَّته، مع أن التجرُّد للحاجِّ عن حظوظ الدُّنيا أَوْلى وأَسْلَم، فعن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: كانَتْ عكاظ ومِجَنَّة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجِروا في المواسم، فنَزَلَت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198] في مواسم الحجِّ؛ رواه البخاري.

هذا بعضُ ما يسَّر الله تعالى الوقوفَ معه، في بيان الحجِّ وفضائله، وبعض مسائله المهمَّة، من كتاب "رياض الصالحين" للإمام أبي زكريا بن شرف النوويِّ – رحمه الله – وهو كتاب نفيس عظيم النَّفع، يا حبَّذا لو اعْتَنَى به أهل العلم وطُلاَّبُه كثيرًا، قراءة وشرحًا وبيانًا، وتعلُّمًا وتعليمًا، فهو كتاب مبارك بإذن الله، وجامعٌ لكثير من الأبواب والمسائل، وما أجْمَل تعليق الشَّيخ العلامة محمَّد بن عثيمين – رحمه الله – عليه! ولكن لا يزال الباب فيه خير كثير، والله المُوَفِّق.

* * *

* الهامش:

---

[1]"رياض الصالحين"، (كتاب الحج، ص: 374 – 376) ط: المجلد العربي.

[2]"تفسير القرآن العظيم"، لابن كثير.

[3]"الجامع لأحكام القرآن"، للقرطبي.

[4]"فتْح القدير"، للشَّوْكاني.

[5]"تفسير القرآن العظيم"، لابن كثير.

[6]"أنوار التَّنْزيل"، للبيضاوي.

[7]"تيسير الكريم الرَّحمن"، للسَّعْدي.

[8]"إغاثة اللَّهْفان من مصايد الشيطان"، لابن القيِّم، (ج1/ 194).

[9]"شرح رياض الصالحين"، (ج3/ 519، 520).

[10]"المنهاج"، (ج9/ 100، 101).

الفهرس

الموضـــــــــــوع	الصفحة
مقدمة	3
الفصل الأول: قضايا أمتنا	5
إلى أدعياء الثقافة والتنوير .. مهلًا	7
تاريخ من الانحراف في تفسير القرآن	17
الأحكام الشرعية بين وسائل الإعلام والإسلام.....................	34
الثقافة الجنسية بين الشريعة الإسلامية والغرب......................	50
عندما يتكلم الكرسي باسم الدين.................................	63
أهل الذمة: قراءة بين النصوص الشرعية والواقع.....................	66
بيان بشأن المسلمات الأسيرات في أطواق الكنائس....................	77
تربية الأولاد مسؤولية الأسرة المسلمة	82
حاجة أولادنا إلى منهج القرآن التربوي	89
الصحابة في حياة الأسرة المسلمة	93
أهؤلاء النساء إماء؟ صور النساء بالمجلات والصحف والإنترنت	95
الفصل الثاني: على الطريق	105
مظاهر الغفلة في حياتنا المعاصرة..................................	107
أمتنا بين الواقع المعاصر وطريق العودة.............................	117
الصحابة ميزان أهل السنة والجماعة................................	133
الجهاد في سبيل الله معلم تربوي	147
الفصل الثالث: إسلامنا	159
إفشاء السلام من شعائر الإسلام.	161

الموضـــــــــوع	الصفحة
من علامات الإيمان الصادق	167
آداب الطريق في الإسلام	171
آداب من السنة النبوية.....	178
وقفات مع الحج وفضائله من " رياض الصالحين"	188
الفهرس	200

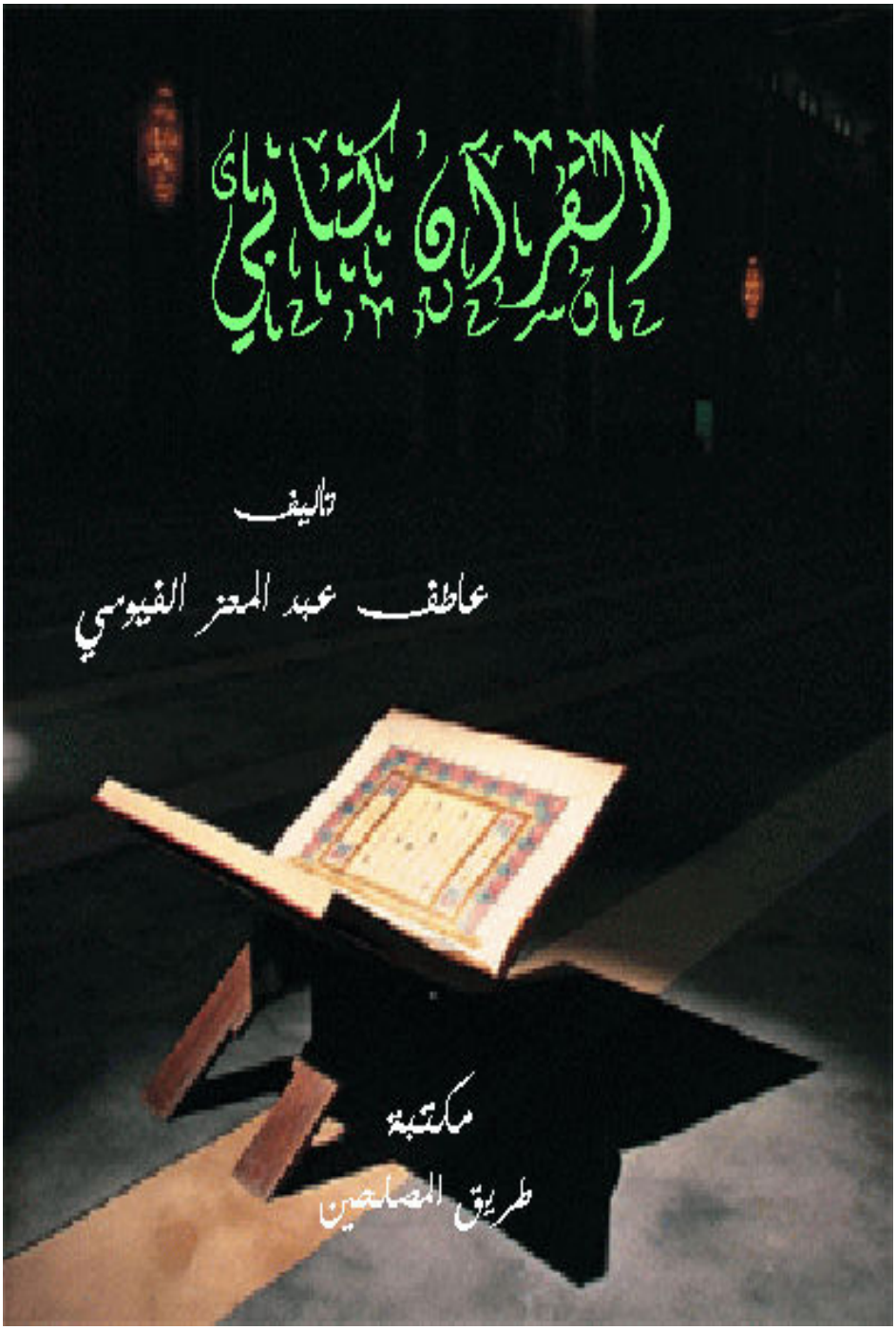
القرآن كتاب حياة
تأليف
عاطف عبد المعز الفيومي
مكتبة
طريق المصلحين